AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
2 2 MAR 1973
Tel. 260458

892.71
A158Yo.A

ليال خمس مع أبي تمام

تأليف

محمد عبده عزام

دار الكاتب المصري

ع قنطرة الدكة — القاهرة

الطبعة الأولى . . . مارس ١٩٤٨

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٨

سمعت هذه الأحاديث من نفسى
فى ليـالى السهـاد
حيث يعيش المهموم
فى دنيا من الظلام والأوهام

فهـــرس

صفحة

١ — حديث الرسالة ٧
٢ — قصة الأصل والنسب ١٤
٣ — حياة المديح ٣٤
٤ — فى مصر مع عياش ٥٣
٥ — فى خراسان مع ابن طاهر ٦٨

١

حديث الرسالة

قال أبو تمام :

نعم يا صديقى فهذه أوراقك الكثيرة التى كتبتها عنى ، وإن ما كتبته لجميل حقاً ، و إن فيه لأشياء أعجبتنى . وإنى لأعلم أنى سببت لك كثيراً من الضيق والشقاء ، ولكنى أعلم أيضاً أنى أسعدتك فى أوقات رأيتك فيها تنسى ضيقك وشقاءك وتسعد بشعرى ومعانيه ...

وها أنت أخيراً كتبت عنى ما كتبت ، وقطعت معى من حياتك ما قطعت ، فهل تراك عرفتنى حقاً؟ وليت شعرى أينا كان أعرف بصاحبه من الآخر! أتذكر قول أستاذك فى كتابه «مع المتنبى» : « ولست أشك أن الشعر مرآة لشىء ، لكنى لا أدرى أهذا الشىء هو نفس الشاعر أم هو شىء آخر غيرها. ومهما أغل فى تصديق هذه النظرية وفى الثقة بنقد النقاد وبحث الباحثين فلن أتجاوز أن أقول : إن نقد الناقد إنما يصور لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر أو الأديب الذى عنى بدرسه ، و إذن فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب ! »

لست آسفاً لأنك اخترتنى شاعرك ، ولكنى ربما كنت آسفاً لما أخذت به نفسك من هذه القيود المنهجية التى جريتم على اصطناعها فى بحوثكم ... لقد كنت أراك تقرأ شعرى وتغنيه فى نفسك ، وتحس

قلبى وما فيه من آمال وآلام ، ولكنك ما تكاد تمضى قليلا فى هذا الاتصال بينك وبينى حتى يفسد عليك أمرك ، ويقطع عنك غناءك ، ويباعد بيننا ، هذه القيود المنهجية وهذه المنفعة العلمية التى دفعتك كما تدفع غيرك من الباحثين لتقف عند هذا البيت أو ذاك من شعرى ، فترى رأياً فى نشأتى أو لون تفكيرى ، أو لتستدل به على طريقة أدائى ، أو لغير ذلك من هذه الأغراض التى تقرأون الشعر من أجلها ... ولكم كنت أشفق عليك ياصديقى وأشفق على نفسى أيضاً حين كنت أراك تنحى ديوان شعرى جانباً فى سرعة ولهفة لتمسك بالقلم وتكتب ما عن لك من رأى فى هذا الباب أو ذاك من أبواب كتابك ...

أتذكر يوم عدت حزيناً متخاذلا من عند هذا الأستاذ ؟... إنك لم تكد تقرأ له شيئاً من رسالتك حتى بادرك بقوله : أراك سرت على طريقة الأستاذ فلان ، فان كنت ياصاحبى تريدنى مشرفاً على رسالتك فلا أقل من أن تسير على طريقتى ... وسقطت بعض الأوراق من يديك حين سألته وما طريقتك ؟ فأمسك بالقلم وكتب لك « عناصر الموضوع ! » أى والله عناصر الموضوع كما كان يفعل بك فى المدرسة الابتدائية والثانوية فى حصة الانشاء ... وتعود إلى بيتك وأنت لاتكاد تعرف الطريق إليه ، حاملا تحت إبطك حملا ثقيلا جداً من الأوراق ...

ولا سبيل إلى رقيك المادى إلا بهذه الدكتوراه ، ولا سبيل إلى الدكتوراه إلا اذا كتبتها على طريقة هذا الأستاذ الذى أسلمتك المقادير إليه !

كنت معك حين ذهبت إليه فرحاً مستبشراً ، وكنت معك حين عدت من عنده حزيناً مبتئساً ، وكنت معك حين ألقيت ما كتبت واستسلمت لحزن بالغ عميق . ولكن الابتئاس لم ينفعك ، فلابد لك من الرجوع إلى « عناصر الموضوع » فالوقت يمضى والأيام لا تنتظر ، وزملاؤك أصبحوا جميعاً دكاترة .

وتثقل عليك الحياة ، ويشتد سخطك على الأيام ، وتنتظر كأن أمور الجامعة ستستقيم لك كما تشتهى نفسك ، ولكن هيهات ذلك يا صاحبى هيهات ! فقد انقضت سنوات ولا زال مفروضاً عليك أن تكتب هذه الرسالة وتنهج فيها هذا المنهج المفروض عليك ! كنت معك فى هذا الصراع المر ، وكم كنت أشفق عليك حين تعود إلى هذه الأوراق القديمة التى كتبتها عنى فتراها كأنها لا فائدة منها لأنك مضطر أن تخططها من جديد وفق هذه الخريطة التى شرطتها عليك المصلحة !

ولو أنك رأيتنى وأنا بجانبك أنظر فيما تكتب عنى لعرفت أنى كنت فى بعض الأحيان أقرأ ثم أبتسم ، راضياً أحياناً ، ساخرا أحياناً أخرى ! ويل لك يا صديقى ! فقد يظهر أنك لا تجيد مناهج البحث ولا تحسن ما يجب أن يحسنه العلماء الباحثون من التبويب والتقسيم ، ومن إخضاع الشعر ليكون شاهداً على هذا الرأى أو ذاك فى سيرة الشاعر وفنه ! ... صدقنى لقد ضحكت كثيراً حين رأيتك تشترى كمية لا بأس بها من هذه الجزازات التى تتوفر فى مكاتب العلماء والباحثين ... ورأيتك وأنت عائد بها إلى بيتك وكأنك تقول لنفسك : الآن أصبحت عالماً ... سأضع هذه الجزارات أمامى ، وربما اشتريت لها صندوقاً خاصاً بها كصناديق الجزازات التى يملؤها العلماء بأفكارهم فيضعون كل فكرة فى خانة ! هاأنت يا صديقى رتبت جزازتك وفق عناصر الموضوع المكتوبة على ورقة الأستاذ ، أو المكتوبة فى الحقيقة على هذه السبورة السوداء القديمة فى السنة الثالثة الابتدائية ... وانظر فى تلك الجزازات التى جعلتها كنزك الثمين ، والتى قسمتها وقسمت حياتى وشعرى وفق أقسامها ، فأضحك لكنى أعود فأشفق عليك وألتمس لك العذر ، لأنه بغير هذه الطرق العلمية المنهجية المنظمة ، أو هذه الـ Méthode كما يحلو لبعضهم أن يقولها ، لن يستقيم لك البحث الذى يقرك عليه الأساتذة ، وتجيزك عليه الجامعة ...

ومع ذلك فليس من حقى أن أقول لك هذا فأفسد عليك أمرك

وربما أضعت مستقبلك . فامض يا صديقى فيما أنت فيه ماض ، وقسم حياتى وفنى كما تشاء الـ méthode عندكم ، وتخير لها من الأسماء ما شئت ، وكذلك مراجعك فاستكثر منها وذيل بها دائما صفحات كتابك ، فهى شاهد على أنك رجل علم وأستاذ بحث .

معذرة يا صديقى فنحن الشعراء كثيراً ما نتجنى على الناس وعلى الحياة ! وإلا فلابد مما ليس منه بد ، فمن حقك على نفسك أن تروضها على شئ من النظام ، وأن تتبع منهج هذا الأستاذ العظيم ، وأنا متسامح فى حقى وحق التاريخ ما دام هذا المنهج سيسبب لك بعض الخير ! ...

ها أنت أخيراً قد كتبت رسالتك بعد صراع مرير عنيف ! وها هى قد جاءت فى فصول أربعة رئيسية ، تحت كل فصل منها كثير من الأبواب. إن هذا الفصل الأول الذى كتبته عن البيئة فصل لا بأس به ، فقد أحطت إحاطة واسعة ، ونظرت نظرة شاملة، وصورت بيئتى العامة وبيئتى الخاصة التى أثرت فى سيرتى ، ومظاهر هذا الأثر فى شعرى واتجاهى فى الحياة ... أما هذا الباب الذى كتبته عما دفعنا إليه جميعا — أعنى شعراء العربية — دفعاً قوياً فى اتجاهاتنا الأدبية ، والعلاقة بين هذا الدافع الأدبى القديم وبين بيئتنا الأدبية الجديدة ، فهو باب أعجبنى كثيراً .

على كل حال أصبح من حقك ياصديقى أن تدعى أنك عرفتنى وكشفت عن حقيقتى كما يكشف صاحب الحفريات عن دمية قديمة عثر عليها بعد تنقيب وبحث ، أو ربما عثر عليها مصادفة ودون عناء ! فليس فى كل ذلك إلا الخير لنفسك وللناس وللتاريخ وللعلم ... نعم وللعلم أيضا ما دمتم أخضعتم حياة الشعراء وشعرهم لطرق العلم والاستنتاج !

ولست أنكر عليك يا صديقى هذه القيمة الأدبية العظيمة التى حصلت عليها من قراءة شعرى والنظر فى كتب التاريخ والأدب من أجل سيرتى ، حتى استطعت أخيراً أن تضع عنى مؤلفاً وتصوغه هذه

الصياغة. شكراً لك! فقد كان فى كل هذا عناء أضناك ، وربما ذكرت به، أو ربما انتفع به بعض المتأدبين ... وإنما أنتم فى الحقيقة — معشر الباحثين فى الأدب — شركاء لنا فى محنتنا ، وممثلون فى جوقتنا التى مافتئت منذ القدم تسمع هؤلاء الناس وتريهم ما فى الحياة من نزعات تنزع إليها القلوب ، وأحلام تهفو إليها النفوس ، وصور تعبر عما فى الحياة من جمال ، وما فيها من خير وشر ، وما فيها من سعادة وشقاء . اخترتم حرفة الأدب كما اخترناها من قبل ، وكما سيختارها الناس من بعد ، فأما نحن فقد أردنا أن نعبر عن نفوسنا خلال هذه القيود الشعرية ، وأما أنتم فقد أردتم أن تعبروا عنا خلال هذه القيود المنهجية ! وهكذا سرنا فى طريق واحدة ، واصطنعنا حرفة واحدة ، ولست أدرى أكانت هذه الصناعة مجرد مصادفة أم إننا اخترناها لشىء آخر ... وأيا ما كان الدافع فقد قضى الأمر ، وسعدنا أو شقينا بهذه المثل والمعانى التى أحللناها نفوسنا ، وعشنا طول الحياة عليها ومن أجلها !

أى صديقى ! لايحزننك قولى هذا ، فانا أعلم ما قاسيت من أجلى ، وأنا أعلم أيضاً أنك أحق الناس بما تطلب من وراء كتابك عنى ... إنه ميراثك الذى خلفه لك شاعرك بعد إذ لم يخلف لك آباؤك شيئاً ! وإنما حديثى إليك حديث صديق يحب الخير لك ، ولا يجد كلفة بينه وبينك .

هل أحدثك عن نفسى بشرط ألا يكون لهذا الحديث أثر فى كتابك ؟ ضع هذه الرسالة العلمية فى درج مكتبك الآن ، وتعال نتحدث دون كلفة أو مشقة ، ودون أبواب وفصول ، ومصادر ومراجع ، فما أكثر ما فقدناه حين تكلفنا فى حياتنا المادية والشعورية ... إنس الآن يا صاحبى هذه الاجازة العلمية التى تقدم هذا الكتاب لها ، وانس هذا الامتحان الذى سيعقد لك أو لايعقد ، والذى أضج مضجعك وأفسد حياتك ... لكأن صورته لا تفارق خيالك ! ... خمسة من الأساتذة الجلة ! أليس كذلك ؟ كأنى والله أراهم كما تراهم أنت يدخلون هذه القاعة الفخمة الفسيحة تتقدمهم الهيبة ويحفهم الوقار ... وها هى

القاعة تدوى بتصفيق حاد يتصل بعض الوقت ، ولكن الأساتذة الجلة يمضون إلى مقاعدهم دون أن يحفلوا بتصفيق لأنهم كالرهبان الذين لا يحفلون بشئ غير مرضاة الله ؛ أستغفر الله — أردت أن أقول غير مرضاة العلم !— نعم ولكأنى والله أراك وقد بدأ كبيرهم يعرف الحفل أنك كتبت عنى بحثاً تريد أن تحصل به على درجة دكتور ، فعليك أن تلخص البحث ليسمع الحضور ماذا قلت ، وليروا كيف تهاجم فترد الهجوم ، وكيف تحرج فتخرج من الحرج ... أراك واقفاً أمامهم لاتدرى كيف تبدأ حديثك عنى وكيف تنهيه ... ولكأنى أسمع ما يجيش به صدرك فى ذلك الوقت وما يخفق به قلبك ... ألم تصطحب سنوات عشر عرفتك فيها كما عرفتنى ؟ أنا أعلم ما تحمل نظراتك إلى نفسك فى مثل هذا الموقف... أنت رجل غلبتك العاطفة، واستبد بك الخيال . أنت رجل ساخر من كل شئ وأنت مصاب بفرط الحس ... وأنت مثلى فى بعض الأحيان حين تنظر إلى الأشياء التى تثير المعانى فتراها متنافرة أو متلائمة ، فتحب أن تطابق بين أطرافها ، وتوائم بين أضداها ، وتجعل من هذه المعانى لعباً عقلية تبدل من صورها وألوانها وأحياناً من حقائقها ! ما من شك أن كل أستاذ من هؤلاء الأساتذة له معنى فى نفسك ، وهم مجتمعون فى روباتهم الجامعية يؤلفون لوحة رائعة صبغها خيالك بألوان بديعة ... وها أنا أراك تستجمع نفسك وتبدأ حديثك ... يا له من حديث خطير هذا الذى أعدت له الجامعة هذا الاعداد الفخم، واحتفلت له بمثل هذا الحفل ! مضى يا صديقى أكثر من ساعتين وصوتك متصل ونظراتك زائغة، ولبك مستطير، ولب القوم مستطير كذلك ! ولكنك أخيراً تنهى تلخيصك على كره منك لأنك لا تحب هذا التلخيص الموجز الرسمى ، أو لأنك تخشى ألا يكون القوم قد فهموا عنك ... إنك أسرعت لأنك رأيت أحد المحلفين ينظر فى ساعته ويهمس إلى جاره. انتهيت من الملخص والحمد لله، ودوى المكان بالتصفيق على عادة الناس حين يفرغ الخطيب من خطبته، وما تدرى أهم يصفقون لأنهم أراحوا منك أسماعهم أم لأنك

فتنتهم حقاً ... ثم يتبع هذا التصفيق سكون رهيب تحتبس فيه أنفاس القوم ، وتنظر عيونهم إلى تلك المائدة العالية المستطيلة التى جلس إليها هؤلاء السادة المحلفون وأمامهم علم الدولة ... وها أنت بدأت تتأهب لملاقاة سهام الهجوم فى هذه الحرب الكلامية المصطنعة ... أرأيت إلى أستاذك ذاك كيف أعلن توفيقك فى بحثك ، وأثنى كثيراً على منهجك وكثرة مصادرك! إن الفضل فى كل ذلك يا صديقى لعناصر الموضوع ! ثم أرأيت إلى هذا الأستاذ الآخر كيف شهر بك وببحثك وبطريقتك ومنهجك ؟ أرأيت كيف صرت عالماً جليل الخطر عند أحدهم وطالباً بليداً قاصر النظر عند آخر فى وقت واحد! أتستطيع إذن أن تضم هذين الضدين وتلائم بين هذين المتنافرين ؟ لك الله يا صاحبى فلقد طارت بلبك هذه الصور المتنافرة ! ... وأخيراً يعلنون للناس أن الحكم بعد المداولة ... ويخلون إلى أنفسهم بعض الوقت فى هذه الحجرة المجاورة للمدرج الكبير حرف A ، وقد يبطئون عليك وعلى الناس فى إعلان النتيجة ، فيزداد اضطراب قلبك رغم ثناء الناس عليك والتفافهم حولك ... وأخيراً يعود السادة المحلفون فيقف القوم على أطراف أصابعهم ، ويعلن كبيرهم أن اللجنة قررت منحك إجازة الدكتوراة بدرجة الشرف الممتازة ... تحقق الحلم إذن وأصبحت دكتوراً ...

أباركك يا صديقى وأهنئك بهذا اللقب الجميل ، فأنا سعيد حقاً حين أراك تنتفع بى فى حياتك المعنوية وفى حياتك المادية كما انتفع غيرك بغيرى من الشعراء والأدباء والفلاسفة ، وكما ينتفع الناس بحرفهم وتجاراتهم ...

اطمئن إذن يا صاحبى ولا تحزن ، وتعال أحدثك بشئ من حياتى على هامش كتابك ، حديثاً لا يتبع منهجاً علمياً كما قلت لك ، ولا يعتمد على مراجع ، ولا يحمل نظريات جديدة تطلع بها على الناس ، إنما هو حديث حظ الحس فيه أكثر من حظ العقل ، ونصيب الاستطراد فيه ربما كان أوفى من نصيب القصد والايجاز .

٢

قصة الأصل والنسب

قال أبو تمام :

وأخيراً ها أنت ترانى وتسمعنى فهل رأيتنى كما عرفت وتوهمت ؟

قلت كأنى أخاطبه أو أخاطب نفسى : نعم لقد صدق بعض ظنى فيك ، فهم قالوا إنك أسمر اللون ، حلو الملامح ، دقيق التقاسيم ، فيك ظرف وخفة روح .

— ثم ماذا ؟

— وقالوا إنك كريم النفس لطيف العشرة حلو الشمائل .

— حقاً ؟ ثم ماذا ؟

— وأنك سريع الخاطر حتى لتجيب المتكلم قبل كلامه كأنك عرفت ما فى نفسه ...

— أكذا وصفنى بعضهم ؟ ثم ماذا أيضاً ؟

— وأنك جعلت الشعر همك وأنفقت حياتك فى المديح .

— دعنا من الشعر الآن ، ماذا قالوا فى من صفات أخرى .

— كنت كريم النفس ، متلافقاً للمال لاتبقى على شىء منه ، على كثرة ما أخذت من صلات ، حتى لقد كنت أعجب لك حين كنت أراك تنفق ما تنفق ثم تعود إلى شكوى الزمان والتبرم بالأيام ...

— ثم ماذا أيضا ؟

— لاشىء بعد هذا إلا ما كان من سنك ونسبك .

— وماذا قالوا فى سنى ؟

— اختلفوا فى ذلك ، وأكثرهم يقول إنك اخترمت فمت قبل أن تبلغ الأربعين وذلك لشدة ذكائك وكثرة ما شددت به على نفسك فى حياتك العقلية ... ولحياتك وموتك روايات أربع أذكرها لك .

ففى رواية أنك ولدت سنة ١٧٢هـ وفى ثانية أنك ولدت سنة ١٨٨هـ وفى ثالثة سنة ١٩٠هـ وفى رابعة سنة ١٩٢هـ . وفى وفاتك تقول رواية منها إنك توفيت سنة ٢٣٢هـ وفى ثانية سنة ٢٣١هـ وفى ثالثة سنة ٢٢٩هـ وفى رابعة سنة ٢٢٨هـ . فأنت ترى أن عمرك يتراوح بين السابعة والثلاثين والستين .

— أما مسألة سنى فليست بذات خطر ، ولكنى أحب أن تذكر لى ماذا قالوا فى نسبى

— بعضهم قال إنك عربى صريح النسب فى طى والبعض الآخر ...

— والبعض الآخر ذكر أنى من أب رومى وأنى دعى النسب فى طى أليس كذلك ؟

— نعم قالوا إن اسم أبيك كان تدوس العطار ، أو Théodosius رجل رومى ، وغيرته أنت إلى أوس بعد إذ صرت عربيا وانتسبت فى طى ... ولابد أنك سمعت شيئاً مثل هذا .

— نعم وكم قاسيت منه ! فكم شنع على دعبل ، وكم نال منى ابن المعذل ، وكم عيرنى غيرهما هذا الأب النصرانى وهذا النسب الدعى ! إننى يا صديقى أخلتهم جميعا ... فنفونى عن أبى ، ونفونى عن قبيلتى ، وصاروا ينشرون فى الناس شعراً يغمزنى غمزاً مؤلما فى نسبى ، ولكنى مضيت قدما ، وأصبحت شاعر الخلفاء والأمراء أو شاعر الدولة الاسلامية .

ولحسن الحظ أو لسوئه لم يكن عندنا فى قريتنا تلك التى يقال لها جاسم ، بالقرب من دمشق ، شهادات ميلاد تثبت الاسم واسم الأب واسم الأم ، وتثبت الجنس والدين كما تفعلون أنتم فى هذه الأيام ... وإنما هو اسم يقال ، ونسبة تطلق ، وكنية أو لقب يعرف بهما الواحد منا بعد أن

يشتهر أمره ، فيطير الاسم مع لقبه وكنيته . وربما ترك بعض الناس أشعارنا وأخبارنا للخوض فى أصولنا وأنسابنا ، مدفوعين برغبة التشنيع ، على عادة الناس فى كل زمان ومكان حين يستحبون الخوض فى أعراض غيرهم ، لاسيما فيمن ينبغ فيهم ويشتهر بينهم ...

وأنت تعلم ما كان للنسب من أهمية فى هذه الحياة العربية الاسلامية وحين اختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى فى مدن الأمصار اضطرب الأمر وسهل الحصول على نسب ... نعم فلم يكن أمراً عسيراً أن يحصل الواحد منا على نسبة عربية أصيلة إذا كان ذلك ضروريا لحياته ونجاحه ... وقد كان عندنا لهذا الأمر كما تعلم صاغة حذاق يصوغون لنا سلاسل النسب صياغة متقنة ، وقد تقصر حلقات هذه السلسلة أو تلك وقد تطول حسبما يدفع فيها من ثمن ! ... فان شئت فجدك الأول قحطان ، وان شئت فهو معد بن عدنان ... نعم ، وكان للنسب عندنا سوق سوداء فيها مساومات وفيها صفقات ، وحين يختلفون فى السعر ، يشتهر الأمر ، ويذاع السر ، وتكون هذه الصفقة الرابحة أو الخاسرة موضوعاً خصبا لقول الشعر . أقرأت قصة حماد عجرد مع محمد ابن نوح كاتب اسماعيل بن على ؟ أمر اسماعيل بن على لحماد عجرد بخمسة آلاف درهم فمطله بها كاتبه محمد بن نوح هذا ، فصنع حماد شعراً خبيثا صور فيه ابن نوح صورة منكرة إذ ادعى أن ابن نوح جاءه عاتباً لأن حماداً نفاه عن أبيه نوح فى بعض شعره ، فتراضيا ، وطلب حماد من ابن نوح أن يذكر أباً من آبائه ليصوغ له نسباً ، فلم يعرف ابن نوح غير أبيه نوح ، فاضطر هذا الصائغ الخبيث أن يتوقف عن صنع السلسلة لأن حلقة واحدة لاتكفى !

قال حماد :

قال ابن نوح لى وقد أظهر بعض الغضب
أنت الذى نفيتنى فى الشعر عن نوح أبى ؟

فقلت لا لا ترمنى منك بمحض الكذب
ويحك لم أفعل وإن كنت سقيم الحسب
لكننى كنت فتى علامة بالنسب
فقلت لى : نوح أبى فقلت : جاوز بأب
فلم تجاوزوه وفى ذلك بعض الريب
فيا ابن نوح يا أخا الحا س ويا ابن القتب
ومن نشا والده بين الربى والكثب
يا عربى يا عربى يا عربى يا عربى !

فهل رأيت يا صديقى كيف فعلت مماطلة ابن نوح؟ كم من المتأدبين ردد هذا الشعر الظريف وتندر به ! ولم ينفع ابن نوح أن كان عربياً أصيلا حقاً أو غير عربى لأن هذه الصورة التى ابتدعها خيال حماد كانت أحب إلى نفوسهم من حقيقة ابن نوح وأصل نسبه ... إنه لون من ألوان الهجاء المليء بالسخرية اللاذعة والصور المنكرة فى حياتنا الأدبية ...

وكذلك فعل معى ابن المعذل ودعبل ومخلد بن بكار الموصلى حين داعبنى مثل هذه المداعبة . والحق أنه نال منى كثيراً بمثل هذا الشعر الخبيث ولم أستطع أن أجرى معه فى هذا الميدان ، لأن حياة المديح شغلتنى عن كل شىء ، ولأننى لو جاريته لنبهت من ذكره ، ولأننى فى الحقيقة لم أكن أملك مثل قدرته على التندر وابتداع مثل هذه الصور الساخرة فى شعر يطير على الناس ... أنظر كيف صورنى الملعون صورة منكرة فسخر من أصلى ونسبى حين ادعى أنه يدافع عنى :

أنت عندى عربى الأصـ ـل مافيك كلام
عربى عربى أجأى ما ترام
شعر فخذيك وساقيك خزامى وثمام
أنا ما ذنبى إذا خالفنى فيك الأنام

وأتت منك سجايا نبطيات لئام
وقفاً يحلف أن ما عرقت فيك الكرام
ثم قالوا جاسمى من بنى الأنباط خام
كذبوا ما أنت إلا عربى ماتضام !

وهكذا دافع عنى اللئيم ، فأثار الشك ثم نفاه ، وجعل الناس جميعاً يخالفونه ، وجعلنى أعين عليه ولا أساعده بسجايا نبطيات لئام ، وقفاً يحلف أن ماعرقت فى الكرام ، ولكنه أخيراً يكذبهم ويؤكد أنى عربى ... أرأيت !

لا أحب أن أذكر لك كل ما قاله هؤلاء الخبثاء فى أبى وفى أصلى وفى نسبى الطائى ، ولا أحب أن أحاول إثبات عروبتى وطائيتى ، فأنا أعلم أنك ممن يداخلهم الشك فى أصلى ونسبى ، ولكنى أعلم أن هذا الأمر لم يغض منى عندك ... أليس كذلك ؟

نعم كان لابد لى من هذه الطائية ... نشأت فرأيت بين جنبى نفساً لا تكاد تستقر ... فنزحت من هذه القرية الصغيرة المتواضعة « جاسم » إلى دمشق حيث كان يجب أن أعيش قبل كل شئ ... اشتغلت صبياً عند حائك ... ومن حقك أن تظن الظنون بأسرتى تلك حين تركتنى أغترب فى مثل تلك السن المبكرة لكى أحترف مثل هذه الحرفة المتواضعة ... ومع أنى لم أمض فى مثل هذا العمل إلا وقتاً قليلا فانه مع ذلك ترك فى حياتى أثراً ليس بالقليل ... فقد يخيل إلى أنى بعد إذ صرت شاعراً كنت أقد الشعر وأفصله وفق معانيه كهذه الثياب التى كنت أقدها ...

ثم قلقلتنى هذه النفس المتوثبة فأدتنى إلى بلدك حيث الجامع بالفسطاط، وحيث حلقات الدرس وشيوخ الأدب والفقه واللغة . اشتغلت بسقاية الماء فى الجامع لكى أعيش وأسمع ما كان يتلى فى هذه الحلقات ... كنت أحس بنهم لعلوم العربية وخاصة الشعر ... كنت أريد أن أملأ

نفسى وأصل إلى غاية بعيدة لم أتبينها تماماً عند أول أمرى ... فى هذه الجامعة الكبيرة أو هذا المسجد الجامع سمعت الكثير وقرأت الكثير ، إلى أن رأيت هذه الغاية البعيدة قد استبانت ووضحت . إنها الرغبة الملحة إلى عمل الشعر ، فقد يمكن أن أصبح شاعراً ... بدأت أستزيد من قرائته واتخذت الطريق إليه ، وصرت فى هذا الطور المبكر من حياتى أحلم بآلاف الدراهم والدنانير تغدق على ، وصرت أتمثل عشرة السادة من الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والكتاب ، من أمثال ابن الزيات وابن أبى دواد وأبناء وهب وأبناء رجاء وحميد الطوسى وأبى سعيد الثغرى وأبى دلف العجلى وغيرهم ... ومن يدرى فقد يمكن أن يكون سبب اتجاهى إلى الشعر لأن الشعر تجد فيه نفس قلقة حائرة مثل نفسى مثابتها.

ثم عدت إلى الشام وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى الهجرى . وفى حمص اشتغلت معلماً لأولاد أسرة كبيرة هم أبناء عبد الكريم الطائيين . كان أبناء عبد الكريم هؤلاء عرباً خلصا ، وكانوا من طى ، ووجدت من برهم بى وحدبهم على ما حببنى فيهم ، وأظنك قرأت هذا الرأى الذى قال إننى حين اتصلت بهذه الأسرة أنتسبت فى طى .

كان لهذه الحياة الجديدة أثرها فى سيرتى ، لأن هذه الوظيفة كانت تدفعنى إلى قراءة متصلة وخاصة فى الشعر ، فصرت أنتقى لتلاميذى من أبناء هذه الأسرة الطائية قصائد ومقطوعات من الشعر حتى أدانى هذا إلى إدامة النظر فى الشعر والجمع منه ، فاخترت فيما بعد هذه المختارات الستة التى ليس بين أيديكم منها فيما أظن إلا نقائض جرير والأخطل ، وإلا هذا المجموع المسمى بالحماسة وهو الذى عرفت به فقال بعض الناس أبو تمام جامع الحماسة ، وبالغ بعضهم فقال أبو تمام فى حماسته أشعر منه فى شعره ، وقال ثالث إذا نسى أبو تمام الشاعر فلن ينسى أبو تمام جامع الحماسة .

وكنت أثناء تدريسى لهؤلاء الفتيان الطائيين أسمعهم بعض ما أصنع من شعر فيطربون له ويتحدثون به إلى آبائهم وذويهم ، فيكثر هؤلاء من برى والحرص على ، وربما طلب منى أحدهم أن أسمعه شيئاً مما قلت

فأنشده فيرضى ويحفزنى إلى عمل الشعر ، حتى انتهى بى الأمر إلى أن صرت شاعر هذه الأسرة الطائية .

وكان هناك بحمص شاعر مشهور أغرمت به كما أغرم به كثير من أهل حمص هو عبد السلام بن زغوان المعروف بديك الجن . كان ديك الجن شاعراً خفيف الروح بديع المعانى ، وكان فتى عربيداً كثيراً ما يخرج إلى حوانيت الخمر خارج المدينة مع نخبة من أصدقائه وخلصائه ، فيعبثون ويتماجنون ويتناشدون الشعر . وكنت أحب أن أشركهم فى هذا العبث الذى يثير الحياة الأدبية ويعطى الشعر مادة خصبة لولا هذه الوظيفة التى كنت أشغلها ، فلم تكن تسمح لى بمثل هذا العبث. وكانت أسباب الحب والألفة توكدت بينى وبين ديك الجن ، وكثيراً ما شجعنى على عمل الشعر حتى بلغ من حبه لى أن أهدانى بعض شعره ونسبه إلى ...

وكان إلى جانب ديك الجن شاعر آخر خبيث اللسان هو عتبة بن أبى عاصم الذى كان شاعر هذه الأسرة يمدحهم وينفق من برهم. وحين رأى أن شأنى بدأ ينبه قال لهم : اخرجوا هذا عن بلدنا فليس يصلح أن يقيم معى فى بلد . فلم يسمعوا له ، فبدأ يهجوهم ويهجونى ، وأخذت أرد عليه ، وربما استطعت أن أثبت له وأكيل له كيلا بكيل ... أتذكر هذه القصيدة التى بدأتها بقولى:

أنبئت عتبة يعوى كى أشاتمه ... الله أكبر أنى استأسد النقد ؟

وهل تذكر قولى فيها :

ما كنت أحسب أن الله يمهلنى ... حتى أرى أحداً يهجوه لا أحد !

وهو البيت الذى عابنى عليه بعض المتعصبين على أو الذين لا يعرفون الشعر ... قالوا كيف يكون لا أحد يهجوه ! فان كانوا أنصفوا فلم لم يعيبوا قول القائل يصف بخيلا :

وجاء بلحم لا شىء سمين ... يقدمه على طبقى كلام !

فما هذا اللاشئ الذى قدم منه هذا المضيف للشاعر لحماً سميناً على طبق من الكلام ! فلعمرى إن هذا أبعد وأفحش لأنه نعت ما ليس بشئ ... ولكنه مع ذلك شعر ، شعر بديع كان يجد الناس فيه ما يحسون من لعب العقل وعبث الخيال ! ثم هلا سمعوا قول مسلم:

أمويس قل لى أين أنت من الورى
لا أنت معروف ولا مجهول

وعلى حسب منطقهم لا بد أن يكون مويس هذا — أعنى أبا المغيث موسى الرافقى — أحد اثنين معروف أو مجهول ... أم تراهم نسوا قول عباس الخياط :

لا شئ من دينـاره أرجح

فما هذا اللاشئ فى الوزن حتى يكون أرجح من دينار ؟ لكنهم أرادوا أن يقيسوا الشعر بمقياس العقل والمنطق و يجعلوا لقضاياه حدودا من مقدمة تسلم إلى نتيجة كما فعل الآمدى فى نقده .

وما من شر ياصديقى يخلو من بعض الخير ، فلقد كان هذا الشر بينى وبين عتبة بن أبى عاصم حافزاً لى قوياً على تجديد الشعر والمبالغة فى معانيه . أقرأت قصيدتى التى هجوته بها :

الدار ناطقة وليست تنطق بدثورها أن الجديد سيخلق
دمن تجمعت النوى فى ربعها وتفرقت فيها السحاب الفرق

قلت له منها :

يا عتبة بن أبى عصيم دعوة شنعاء تصدم مسمعيك فتصعق
أخرست إذ عاينتنى حتى إذا ما غبت من نظرى ظللت تشدق
وكذا اللئيم يصول إذ نأت النوى بعدوه ويحول ساعة يصدق

عير رأى أسد العرين فهاله حتى إذا ولى تولى ينهق
أو مثل راعى الضأن أتلف ضأنه ليلا وأصبح فوق نشز ينعق

كما قلت أيضا :

إياك يعنى القائلون بقولهم إن الشقى بكل حبل يشنق
سر أين شئت من البلاد فانني سور عليك من البلاد وخندق

وأظنك لاحظت أن شعرى قارب من الاستواء والنضج فى هذا الطور المبكر من حياتى ، فقد أطلت فى هذه القصيدة الوقوف على الدار ، وأطلت التشبيب فى مطلعها ، لأشوق القارىء ، أو لأستثير نفسى ، أو لأظهر استخفافى بمن أنا مقدم على هجائه ، وكذلك كان يفعل الحذاق من أصحاب الهجاء ، كما أظنك لاحظت بواكير هذا الفن الذى غالبت نفسى عليه حتى حذقته وصرت أعرف به ، فهذه الدار ناطقة وغير ناطقة ، وفى ربع هذه الدمن تجمعت النوى وتفرقت السحب . ولا أدرى كم من الناس استطاع أن يرى النوى مجتمعة فى هذه الدار ، وكيف وقعت منهم «السحاب الفرق» أى السحاب الذى يتفرق من معظمه بمنزلة الناقة التى تفارق الابل إذا أخذها المخاض ...

ترى إلى أين ذهب بنا الحديث ؟ كنت أحدثك فيما كان لأبناء عبد الكريم الطائيين من أثر فى حياتى ، وذكرت عتبة بن أبى عاصم ، وهل أستطيع أن أنساه أو أنسى ما قال فى ؟

وكأن طريق النجاح كانت مهيأة لى فى ذلك الوقت ، فقد نظرت فاذا بنو عبد الكريم فى الشام يمنيون طائيون ، وفى مصر عياش ابن لهيعة الحضرمى ، والمطلب الخزاعى ، وفى خراسان حفص بن عمر الأزدى ، وفى أرمينية وأذربيجان أبو سعيد الثغرى الطائى وصاحبه حميد

الطوسى ، فأتاح لى نسبى الأصيل أو المدعى — فسواء لدى هذا وذاك — أن أقول لحفص بن عمر الأزدى تقرباً إليه :

متت إليه بالقرابة بيننا ... وبالرحم الدنيا فأغنت عن الود
رأى سالف الدنيا وشابك أهله ... أحق بأن يرعاه فى سالف العهد

كما أقول له منها :

فلم أغش باباً أنكرتنى كلابه ... ولم أتشبث بالوسيلة من بعد
فأصبحت لا ذل السؤال أصابنى ... ولا قدحت فى خاطرى روعة الرد

أنخت إلى ساحاتهم وجنابهم ... ركابى وأضحى فى ديارهم وفدى
إلى سيفهم حفص وما زال ينتضى ... لهم مثل ذاك السيف من ذلك الغمد

نعم ياصديقى فهذه اليمنية وهذه الطائية كانت قربى حسنة لهؤلاء السادة من الولاة والقواد ... وكيف كنت أستطيع أن أفخر كما يفخر شعراء العربية المتقدمون فأقول مثلا :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ... وسمى فيهم وهو كهل ويافع
سما بى أوس فى السماح وحاتم ... وزيد الفتى والأشرفان وراتع ،

أو أقول :

لولا سيوف بنى قحطان ما قرئت ... بين الصفا وحطيمى مكة السور
ولا أحل حلال الله فى بلد ... من الأنام ولا حجوا ولا اعتمروا

نعم كيف كنت أستطيع أن أقول ما قلت من مثل هذا الفخر إذا لم يكن لى مثل هذا النسب العريق وهؤلاء الآباء ؟
وإذن فلم يكن هناك بد من هذه اليمنية وتلك الطائية سواء كنت

يمنياً أو غير يمنى ، وطائى النسب أو غير طائى... ولقد قرأت الشعر القديم كله وتأثرت به حتى لا أدرى أكنت صادق حقاً أم غير صادق حين أقول لعمر بن عبد العزيز الطائى من أهل حمص :

سافر بطرفك فى أقصى مكارمنا ... إذ لم يكن لك فى ثأثيلها سفر
هل أورق المجد إلا فى بنى أدد ... أو أجتنى قط لولا طيىء ثمر ؟
لولا أحاديث بقتهـا أوائلنا ... من السدى والندى لم يعرف السمر

لقد كان حقاً حراماً على نفسى أن أحرم مثل هـذا الغناء العربى ، وهذه المعانى الجديدة فى مثل قوالبها القديمة المهيبة !

على أنى لم أقف عند هـذا الفخر والاشادة بالآباء على هـذا النحو القديم ، بل تطرفت فى عروبتى ، وغاليت فى يمنيتى وطائيتى ، حتى تعرضت للشر ، وحتى كانت هذه العصبية الغالية مثار الشك الذى كنت أفر منه . قل إنه المريب الذى يكاد يقول خذونى ، أو قل إنه مركب النقص كما تسمونه ، الذى يدفع إلى الأخذ من طرف بمقدار النقص فى الطرف الآخر ، أو قل إننى قد استبد بى هذا الشعر القديم فى كل شىء حتى تبديت وأنا حضرى ... قل ما شئت فى هـذا وعلل بما أردت ، فقد لا أعرف أنا نفسى لهـذا من علة ... أذكر أنى مررت يوما بجماعة من الفتيان على قنطرة سر من رأى وكانوا يستعرضون الخيل ، فلما رأونى قال لى واحـد منهم وعرض بنسبى : يا أبا تمـام أى رجل أنت لو لم تـكن من اليمن ؟ قلت : ما أحب أن يغير الله الموضع الذى أختاره لى ، فممن تحب أن أكون ؟ قال : من مضر ، قلت : إنما شرفت مضر بالنبى — صلى الله عليه وسلم — ولولا ذلك ما قيسوا بملوكنا وفينا كذا وفينا كذا ، وفخرت وذكرت أشيـاء عبت بها نفرا من مضر ، فنمى الخبر إلى القـاضى أحمد بن أبى دواد — وأنت تعرف ما كان لهذا القاضى من سلطان — فقـال : ما أحب أن يدخل على أبو تمـام ،

فليحجب عنى . وعرفت أنه غضب غضباً شديداً ، فجزعت وأخذت أترضاه ، وقلت له قصيدتى التى تعرفها :

سقى عهد الحمى سبل العهاد وروض حاضر منـــه وبادى

ولكن ابن أبى دواد لم يرض عنى ، فقلت له قصيدة ثانية :

أرأيت أى سوالف وخـدود عنت لنـا بين اللوى فزرود ؟

وأخيراً رضى عنى بعد شفاعة خالد بن يزيد الشيانى فقلت قصيدة ثالثة هى الدالية المعروفة :

سعـدت غربة النوى بسعـاد فهى طوع الاتهام والانجـاد

وفيها ذكرت شفاعة خالد .

ومن هذا الاسراف الذى كنت فى غنى عنه ، والذى قد يبدو للبعض أنه أقرب إلى التصنع والتمثيل منه إلى الحقيقة ، هذا المشهد الذى كان بينى وبين البحترى فى بيت أبى سعيد الثغرى . فقد جاء البحترى ليلقى أبا سعيد أول لقاء بقصيدته « فيم ابتداركما السلام ولوعا » وكنت وقتئذ مع أبى سعيد بمرو ، فأخذ ينشده قصيدته هذه حتى وصل منها إلى قوله فى وصف حاله :

فى منزل ضنك تخال به القنا بين الضلوع إذا انحنين ضلوعا

فما كدت أسمع هذا البيت حتى نهضت واقفاً وأقبلت على البحترى مسروراً به ، وضممته إلى وقبلته فيما بين عينيه ، وصحت : يأبى الله إلا أن يكون الشعر يمنياً ! وجعلت أفخر باليمن وبطى ، وأنهم ينبوع الشعر .. وسر أبو سعيد لذلك ، وأكمل البحترى قصيدته ، وأعطاه أبو سعيد جائزة لا بأس بها ، لكنى لم أقنع حتى أضعها له ، وجلسنا نحن الثلاثة فما لبثت أن وجدتنى أقول للبحترى : نعيت إلى نفسى !

قال : أعيذك بالله من هذا القول ! — قلت : إن عمرى لن يطول وقد نشأ فى طى مثلك ... أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شيبة وهو بين رهطه يتكلم فقال : والله يا بنى لقد نعى نفسى إلى إحسانك ، لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله ... فقال البحترى : بل يبقيك الله و يجعلنى فداك ... !

وأكثر من هذا مغالاة فى الظهور بمظهر العربى الأصيل أنى ارتديت زى الأعراب فى مستهل حياتى . كان ذلك فى بغداد عند ذهابى إليها لأول مرة ، وكنت عرفت أن بعض الشعراء المشهورين يجتمعون كل جمعة فى جامع المدينة فيتناشدون الشعر، ويعرض كل واحد منهم على أصحابه ما أحدث بعد مفارقتهم فى الجمعة التى قبلها ، أذكر منهم : دعبل الخزاعى ، وعلى بن الجهم القرشى ، وأبا الشيص ، وابن أبى قيس ، والحاذرى . فأردت أن أتعرف إليهم فجاست بين الناس الذين التفوا حولهم ، وقد ارتديت زى الأعراب وجلست على هيأتهم . فلما فرغوا من إنشاد أشعارهم قلت : قد سمعت إنشادكم منذ اليوم فاسمعوا إنشادى . فانتبهت الجماعة وقالوا لى : هات . فأنشدت قصيدتى « نجواك عين على فحواك يا مذل » ومررت فيها حتى انتهيت إلى قولى فى مدح المأمون :

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وعند ذلك رأيت وجه أبى الشيص قد تغير ، وعقد خنصره ، وصار يتبرم بمكانه ، ومضيت فى القصيدة إلى آخرها ، وما كدت أفرغ منها حتى استنشدتنى الجماعة شعراً آخر ، فأنشدتهم قصيدتى التى أولها :

دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الالمام

ولما فرغت منها طلبوا المزيد فأنشدتهم قصيدتى :

قدك اتئب أربيت فى الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائى ؟

حتى انتهيت إلى آخرها ، فقال لى بعضهم : لمن هذا الشعر ؟ — قلت

لمن أنشدكموه — قال دعبل : ومن تكون ؟ — قلت : حبيب بن أوس الطائى — فقال أبو الشيص : تزعم أن هذا الشعر لك وتقول « حتى ظننت قوافيه ستقتتل » ! — قلت : نعم لأنى سهرت فى مدح ملك ولم أسهر فى مدح سوقه ! فسكت أبو الشيص على غيظ ، وأعجب بى من حضر ، وصرت منذ ذلك اليوم كأحدهم ، أجتمع معهم وأنشدهم ، وأستمع إلى إنشادهم . وترقت حالى ونبه ذكرى بعد ذلك ، وكان أحبهم إلى نفسى وأعلقهم بقلبى على بن الجهم ، ذلك الفتى القرشى الكريم الطبع الدمث الخلق الأبى النفس .

كذلك كنت فى بعض الأحيان أتفاصح تفاصح الأعراب مع أنى شاعر حضرى . أنظر مثلا كيف كنت أصطنع لغة طى فأستعمل « ذو » بدل الذى وهى لغة طى لأدل على أنى طائى عريق ، فأقول لصاحبتى :

أنا ذو عرفت فان عرتك جهالة فأنا المقيم قيامة العذال

كما أقول لممدوحى :

إذا أنت وجهت الركاب لقصده تبينت طعم الماء ذو أنت شاربه

أليس جدى الأول جلهمة الذى طوى البئر وقال :

فان الماء ماء أبى وجدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت

وكثيراً ما اصطنعت فى شعرى معانى بدوية من هذا الشعر الرواقى الذى يظهر فيه جلد النفس والفتوة والاسراف . فلم يكن شعرى فى الحقيقة صورة لنفسى بقدر ما كانت نفسى صورة لشعرى ، أقرأ الشعر القديم فأتأثر فأتخيل ثم أخال . والحقيقة يا صاحبى أننا تكلفنا أشعارنا كما تكلفنا فى كثير من الأحيان سيرنا ، وما كان أقسى ذلك وأشقه حين نتغنى أحلاماً قديمة لا نراها ولا نحسها فتستبد بنفوسنا أحياناً حتى لنحاول أن نحققها !

أنظر كيف كنت أقول متبدياً :

إن خيراً مما رأيت من الصفح عن النائبات والاغماض
غربة تقتدى بغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض
من أبن البيوت أصبح فى ثو ب من العيش ليس بالفضفاض
والفتى من تعرقته الليالى والفيافى كالحية النضناض
كل يوم له بصرف الليالى فتكة مثل فتكة البراض

فماذا كنت تظننى لو سمعت هذا الشعر ولم تعرف أنه لى ؟ كأنى والله وأنا أقول هذا الشعر كنت فى ثوب هذا الفتى البدوى العريق فى بداوته ، الذى يجب أن يغترب غربة طويلة قاسية مثل غربة قيس ابن زهير العبسى ، الذى حارب ذبيان وانتقل فى البلاد ، ثم إنه ترهب فى آخر عمره ، إلى أن لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل حذيفة وحمل ابنى بدر قتله . وكذلك اغترب الحارث بن مضاض الجرهمى غربة طويلة بعد أن كان رئيساً بمكة أيام قومه بها ، فجاءت خزاعة وأجلتهم عنها ، فقال هذا البيت الحزين :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهكذا أثر هذا الشعر القديم على مثلى وفى شعرى ، بل على سيرتى العملية كما رأيت ، حتى أحببت أن أغترب غربة طويلة كغربة هذين الرجلين ، وأحببت أن تعرق الليالى والفيافى لحمى فأتقلقل فى البلاد كما تتقلقل الحية النضناض ... بل أحببت أن أكون هذا الفتى الفاتك الذى يقتل الناس فى غير حرب كالبراض بن قيس الكنانى الذى قتل عروة الرحال فى غير حرب ، فجر ذلك إلى حرب الفجار بين قيس وكنانة ، وشهدتها قريش ورئيسهم يومئذ حرب بن أمية ، ويقال إن النبى

صلى الله عليه وسلم حضرها وهو ابن عشرين سنة . أحببت أن أكون فتى النكبات الذى دأبه إثارة العجاجات ... أرأيت !

أنظر يا صديقى إلى هذه الرواقية البدوية وما فيها من جد وزماع حين كنت أقول لصاحبتى :

أما وأبيها لو رأتنى لأيقنت بطول جوى تنفض منه الحيازم
رأت قسمات قد تقسم نضرها سرى الليل والاسئام فهى سواهم
وتلويح أجسام تصدع تحتها قلوب رياح الشوق فيها سمائم

فهل رأيت إلى صورة هذا الفتى بعد أن لوحته الشمس وأثر فيه سرى الليل ؟ وأقول لصاحبتى :

سلى هل عمرت القفر وهى سباسب وغادرت ربعى من ركابى سباسبا
وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتهن رددننى جريحاً كأنى قد لقيت الكتائبا !

كما أصف نفسى فأقول :

شجى فى حلوق الحادثات مشرق به عزمه فى الترهات مغرب
كأن له ديناً على كل مشرق من الأرض أو ثأراً لدى كل مغرب

ولا بد أن تكون قرأت أرجوزتى « وعاذل عذلته فى عذله » ورأيت كيف صورت نفسى فتى عربياً ضارباً فى البداوة ، يسرف فى اللهو ، ويعطى شبابه حقه من العبث ، حاذقاً بحداء الابل ، مسافراً تلعب به النوب ، يطلع بحمله ، وينفلت لقضاء أمره ، مثل السيف فى مضائه ، همته ولدت قبله ، مسرفاً فى ماله ، مر المذاق على أعدائه ، كشجرة المر التى تفىء مع مرارة ثمرها من يستظل بظلها !

نعم كانت موجة القديم قد بدأت تطغى من جديد فكانت ردة أدبية

قوية بعد ما رأى الناس من بشار وأبى نواس ومن إليهما ممن خرجوا عن القديم وأسرفوا فى الجديد . وتستطيع أن ترجع هذا الميل إلى التبدى إلى هذه الردة الأدبية ونحن فى العصر العباسى نعيش فى المدن ونخالط سادة مترفين كل الترف ، لكنك تستطيع أيضا أن ترجع شيئا منها إلى استعداد طبيعى فى بعض النفوس التى عشقت هذه المثل القديمة ، فقد كان فى هذه الرواقية البدوية أحسن متنفس لهذه النفوس المكبوتة فالتمست حاضراً مثالياً فى هذا الشعر البدوى القديم حين عز عليها ماض من النسب كريم !

وسكت أبو تمام حتى حسبت أن كلامه قد انقطع ، لكنى سمعته يقول : ترى إلى أين ذهب بنا الحديث مرة أخرى ؟ كنت أحدثك فى نسبى وفى أصلى فاستطردت . وهل كنت تريدنى حقاً على أن أصارحك بأصلى وبنسبى وأثبته لك بالأدلة والبراهين ؟ لقد كنت أرى الأدب أبى وجدى ومعشرى وقبيلى ، أقول لبعضهم ممن يتباهون بالحسب والنسب :

كذبتم ليس يزهى من له حسب ... ومن له نسب عمن له أدب ؟
إنى لذو عجب فيكم أردده ... فيكم ، وفى عجبى من زهوكم عجب
لجاجة هى فيكم ليس يشبهها ... إلا لجاجتكم فى أنكم عرب

وأقول لصديقى على بن الجهم :

إن نفترق نسباً يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد

وأخيراً فهل قرأت هذا الكتاب الصغير الذى وضعه عنى الأستاذ عمر فروخ وجعل عنوانه « أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم » ؟ لقد حاول هو الآخر كما حاول بعض المستشرقين أمثال نيكلسون وهيوار ومرجليوث أن يثبت أصلى النصرانى فردد قول الآمدى الذى أورده ابن خلكان

والذى عند أكثر الناس أن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم ، قرية من قرى دمشق ، يقال له تدوس العطار ، وقد لفقت له نسبة فى طى ثم ذكر رأى مرجليوث الذى جاء فى دائرة المعارف الاسلامية وهو لايشك فى أصلى النصرانى ، لكنه لايدلل على ذلك كأنما هو شعور أو افتراض . وانتهى فروخ إلى قوله: « ومن ذلك نستطيع أن نصل إلى رأى لايحتاج إلى كثير من التحفظ فى إبدائه وهو أن تدوس هذا كان من الجالية الرومية التى كانت فى سوريا قبل الفتح الاسلامى . » لكن شيئاً ظريفا جاء فى حديثه ولعله استرعى انتباهك ، أعنى هذه القرينة الجديدة التى استدل بها على نصرانية أهلى ، وهى قرينة جديرة بالاعتبار حقاً لو صح تفسيره لها . فلقد جاءنى يوماً خطاب وأنا عند أبى سعيد الثغرى ينعى إلى بعض أهلى ، فكتبت إليه مستأذناً بالسفر :

يا من به يفتخر الفخر ومن به يبتهج الشعر
ما طلبى للاذن أن شاقنى شمس من الانس ولا بدر
بلى ، كتاب أخرس ناطق أنطق منه طيه النشر
فانتشرت حين بدا طيه سرائر يكتمها الجهر
جاء نذير الموت فى بطنه بحادث أظهره الظهر
فانهل فى أسطره أسطر للدمع سطر فوقه سطر
فمن بالاذن على نازح عن أهله ساعته دهر
فقدصدقت الظن فى كل ما رجوتة إذ كذب القطر

ففسر فروخ قولى :

جاء نذير الموت فى بطنه بحادث أظهره الظهر

أن الكتاب جاءنى موشحاً بالسواد على عادة النصارى فى حدادهم . ولا أدرى من أين جاء بهذا وليس فى البيت ما يقطع به ، وليس فى شروح المتقدمين كما تعلم ما يثبته . فرأى التبريزى كما عرفت أن أحسن

ما يتأول فى هذا البيت على مذهبى فى الشعر أن أكون عنيت بالظهر ظهر نفسى ، أى أنى لما أتانى الخبر انحنى ظهرى فأظهر ما عندى من الحزن ، أو يجوز — كما قال — أن يكون جاءنى فى بطن الكتاب أمر لم أصرح به ، ثم رأيت فى ظهره شيئاً مكتوباً بين لى عن حقيقة الأمر ... فهل يفهم من هذا أن الخطاب جاءنى موشحاً بالسواد ؟

أما أستاذكم الدكتور طه حسين بك فهو أميل إلى الشك فى نسبى ، وأنا أعلم أنه يود أن يفرغ لى يوماً ليكتب عنى ... وددت والله أن يفعل ...! ولعله يحس يونانيتى من طريقة تفكيرى ونظرتى للأشياء ، وأخصها الدقة والغوص على المعنى ، والنظر إلى الأشياء من طرفيها والمقابلة بينهما ، وذكر الحالة التى تكون عليها ، ثم هذا التجسيم للمعنويات الذى قامت عليه الميثولوجيا اليونانية ... وأنا أعلم أنك كثير العشق لما يقول أستاذك ، ولعلك تشاركه هذا الحس لولا أن حسه هو تسنده دراسة يونانيات طويلة عرف منها عقلية القوم وخيالهم وطرق تفكيرهم ، فأما أنت يا صاحبى فحظك من هذا قليل فيما أظن ...

وهناك أيضاً علم من علومكم المستحدثة لو حذقته كما حذقه بعض العلماء لنفعك الآن نفعاً عظيما ، ولكانت نظرة واحدة منك إلى كفيلة أن تعطيك فكرة عن أصلى . لكنك لا تعرف من الأنثولوجيا إلا ما يعرفه كثير من أمثالك الذين يقولون إنهم مثقفون ... أنظر إلى هذه الجمجمة جيداً فقد تكون لمصرى حامى أو سامى ، أو قد تكون حقاً جمجمة رجل نبطى ، أو هى من النوع الآرى ... لكنى أراك لا تعرف من هذا العلم إلا استدارة الرأس أو استطالتها ، وإلا ضيق الجبهة أو عرضها ، وإلا بعض علامات فى الفك أو القمحدوة قد يتميز بها صنف من الناس دون صنف آخر ... وإذن فلا سبيل إلى انتفاعك بهذا العلم لتعرف أصلى إن كنت ممن يحرصون على معرفة الأصول ... وما أرانى قادراً على أن أضع رأسى بين يديك فتظل تقلب فيه لتنتهى أخيراً إلى رأى !

أما الروايات القديمة التى فقدت قداستها وخاصة عندكم فى الجامعة ، وأما هذه الآراء المحدثة فان أحدها لم يسلم إلى نتيجة مقطوع بصحتها ، فهى أقرب إلى الظن والافتراض منها إلى اليقين والبرهان ...

وهل يضيرك فى شىء مع ذلك أن تصدق أنى عربى الأصل طائى النسب ؟ لقد قلت أنا ذلك ورددته فى شعرى ، وظهرت به فى حياتى ، فماذا يهمك بعد ذلك من أمر نسبى ؟ أليس لى أخيراً من شعرى أعرق النسب فى التراث العربى الاسلامى ؟ فلا تعن نفسك يا صديقى كثيراً فى هذه المسألة ، ودعنى أحدثك فى ليلة أخرى عما لقيت فى حياتى من صراع ومغالبة ، وما اختلف على نفسى من هناء وشقاء ، فلقد كانت هذه المغالبة أكبر شىء تأثرت به حياتى ، مغالبة قوية دائمة كانت بين نفسى وبين من عرفتهم من الناس ، وبين عقلى وبين ما عرفه من المعانى! أم أنت لا يهمك إلا أن تعرف أعربى أنا أم رومى ، وفى أى سنة ولدت ، وفى أى سنة توفيت ، ومتى على وجه التحديد اتصلت بهذا الأمير أو ذاك ، ومتى ارتحلت من هذا القطر إلى ذاك ؟ لست من ذلك يا صاحبى فى شىء ، فلن أحدثك حديث الأرقام ، ولن أنتهى بك إلى مثل هذه النتائج المادية التى تعود بعض مؤرخى الأدب العربى أن ينتهوا إليها فى بحوثهم . لكنى سأقص عليك قصة النفس المتعبة المتحفزة ، وكيف غالبت حتى غلبت ، وصارعت حتى صرعت ... وهل كانت مسألة أصلى ونسبى إلا جانباً من هذا الصراع العنيف ؟

٣

حياة المديح

سأحدثك الليلة عن المديح ، والمديح فى الحقيقة سيرتى كلها ! كم ذقت من حلاوته وتجرعت من مرارته ! أى أفق جميل كان يتراءى لنا على أبواب هؤلاء السادة من الممدوحين ، وأى صراع ومغالبة كانا فى ضمائرنا ونحن نتملقهم ونشيد بذكرهم ! لقد أخذت حياة المديح من نفسى كثيراً وكلفتنى جهداً قتانى ... غير أنه كان لابد من هذه الثمرة القاتلة ... أظنك فى غير حاجة لأقول لك إن شعر المديح كان طريق الشعراء إلى العيش ، وطريقهم إلى الغنى لمن ساعدهم حظهم أو جهدهم ...

لقد نسيت مدائحى ونسيت ما أفدت منها وبقى فى فمى مرارة كلمات ابن المعذل التى يقول لى فيها :

أنت بين اثنتين تبرز للنا ... س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالباً لوصال ... من حبيب أو طالباً لنوال
أى ماء لماء وجهك يبقى ... بعد ذل الهوى وذل السؤال

صدق والله عبد الصمد ! فقد طالما حاولت أن أبقى على ماء وجهى وطالما تململت من حياة المديح تلك ، لكنى لم أكن أستطيع أن أحيى بغيرها ، وهذا هو العلقم المذاب ...

ألم تسمعنى أستغيث فى هذا المديح فأطلب إلى الممدوح أن ينقذنى منه فأقول لأبى سعيد :

فاشدد يديك على يدى وتلافنى ... من مطلب كدر الموارد راكد
أصبحت فى طرقاته ووجوهه ... أعمى ، ولـكنى نبيل القائد !

ألم تسمعنى أقول :

ذل السؤال شجى فى الحلق معترض ... ودونه شرق من خلفه جرض
ما ماء كفك إن جادت وان بخلت ... من ماء وجهى إذا أخلقته عوض

وأقول :

ومدح من ليس أهل المدح أحسبه ... عضواً تفصل من قلبى ومن جسدى

وأقول :

وما أبالى وخـير القول أصـدقه
حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

حتى لقد كنت أصرخ فى وجه الممدوح فأقول :

فمتى أروى من لقـائك همـتى ... ويفيق قولى من سواك ومقولى !

صيحـات ياصديقى نصيحهـا ، وأنات كنـا نفرج بها من ضيقنـا ، ثم لا نلبث أن يعاودنا الداء القديم فتتخايل المنى على أبواب السادة من القواد والوزراء والـكتاب ، ويتراءى لنا الخلفاء وهم يغمروننا بالعطاء ، فنجرى وراء هذا السراب ونتـدافع ونقتـل أنفسنا قتلا من أجـله ... ودعنى هنا أيضا أخفف عن نفسى قليلا وأفسح لها من ضيقها بهذا الملق الذى قضيت حياتى فيه ، دعنى أخادع نفسى قليلا كما كنت أخادعها لأحملها على حياة المديح تلك ... وما من أحد يفـكر فى ذنب اقترفه

إلا وجدته يفكر كذلك فيما عساه يبرئه منه... أليس كذلك؟ وما يضيرك فى شئ أن ألتمس لنفسى الأعذار وأزكى لها حياة المديح التى عيرت بها؟! لقد كان هذا المديح ملقاً حقاً، ولكن ليت ما يملأ الحياة من ملق ورياء يصدر عنه دائماً ما يصدر عن الشعراء والأدباء وأصحاب الفنون! أراك تبتسم ياصديقى كأنك عرفت أنى إنما ألتمس ما يبرر هذا الرياء... وإذن فلا مندوحة لى من التعرض لمجتمعكم هذا الذى تحيون فيه، فانى أراه صورة أخرى من مجتمعنا على بعد العهد ومع اختلاف الصورة... أفهمت عنى؟ أم تحب أن أقول لك إنكم لازلتم تحيون حياة المديح هذى فى كثير من إنتاجكم الفنى! نعم ولا زال هذا الملق هو المحور العتيد الذى تدور عليه بعض الرءوس عندكم كما تدور الأرض على محورها المائل القديم... أليس كذلك؟ ترى أيستقيم المحور يوماً ما فتستقيم أمور كثيرة، ويخلص الأدب والفنون من شوائب مكدرة، ويحيى أصحاب المثل العليا فى رحاب واسعة من الحرية، أم يظل الأدب توجهه القصور ويصدر لخدمة السادة! أراك ياصاحبى مأخوذاً كأنك لا تعى ما أقول، أو أنت فى الحقيقة تعيه لكنك لا تود أن أخوض فيه فأجلوه وأضع أصابعك العشرة عليه، فلا يبقى لك من كبريائك شئ! لست أشك فى أن بعض أدبكم أو كثيراً منه قد تحرر من هذا المديح الصريح أو الرسمى الذى كان فى أيامنا، لكنك مع ذلك لا تستطيع أن تدعى أنكم تصدرون فى آثاركم الفنية عن حرية تامة، ولا تضطرنى أن أذكر لك فيما تسخر الأقلام عندكم... نعم كنت أمدح القواد الذين حاربوا الروم أيام المعتصم والواثق، وبالأمس القريب كانت عندكم حرب مبيرة لا يزال أديم الأرض شرقاً يفهق بدمائها، حرب بين الديموقراطيين وغيرهم من الفاشيين أو النازيين، فهل نسيت هذا الانتاج الأدبى الذى امتلأت به الصحف والمجلات، والذى امتلأ به الأثير أيضاً فى تمجيد هذه الديموقراطية والدفاع عنها والانتصار لها وإطراء مبادئها ورجالها! أراك تقول فى نفسك كلا فانها مبادئ دافعنا عنها، والمبادئ شئ

والأشخاص شئ آخر ... ولا شئ يملأنى ضحكاً كبراعة الناس فى الاحتيال على أنفسهم وخداعها بمثل هذا ! ألم تسأل عما أفاده هؤلاء الأدباء الذين دافعوا عن تلك المبادئ ! أم اقتصرت الأخبار والروايات على ذكر صلات الخلفاء وتركت صلات الحلفاء ؟ على أية حال لاأحب أن أخوض كثيراً فى هذا فربما عرفت أنت من ذلك مالا أعرف ،و إنما أردت قبل كل شئ أن أخفف من غلوائكم فى تقبيح شعر المديح والزراية بأمثالنا ممن قضت عليهم ظروفهم أن يقضوا حياتهم فيه ...

وأنت تعلم أن المدحة ليست كلها تعداداً لمناقب الممدوح أو ثناءاً عليه ، لأننا نستهل مدائحنا عادة بالوقوف على الديار والأطلال ، فنقف ونطيل الوقوف ، ونشبب ونطيل التشبيب ، ونستعبر ما شئنا أن نستعبر ، ونتحدث إلى أصدقائنا وصديقاتنا كثيراً فى هذا القسم من المدحة ، فهلا ترى أننا فى كل هذا نتحدث عن أنفسنا ونترجم عن مشاعرنا ؟ وإلا فما هؤلاء الصحب الذين نجردهم من نفوسنا وندعى أنهم لا يفهمون عنا ، ولا يحسون عواطفنا ، ولا يقدرون وفاءنا حين نقف على الديار بالبكاء والاستذكار ! أحببنا التعريج على هذه الديار مع أنها مضت ومضى أهلها وأصبحت موحشة لا تسكنها إلا الظباء والآرام ، لكن هؤلاء الأصدقاء أبوا أن يقفوا معنا على ديارنا وأطلالنا لأنهم قوم لا يعنيهم إلا أن يصلوا ... إنهم قوم لا يهمهم إلا الحاضر الماثل ... فأما نحن فلم نشأ أن نتخلى عن هذا الماضى فقد اتصلت به يوماً نفوسنا وسعدت به قلوبنا ... نحن قوم نمجد هذه الخرائب لأننا نحب ذكراها ونحب قدمها ! ولكم حاولنا أن نجعل هذا الصحب يفهم عنا ، فذكرنا لهم لماذا نحب التعريج على هذه الديار ، لكنا أخيراً كنا نستيأس منهم فنضطر أن نمضى معهم ... نعم كنا نضطر أن نمضى معهم لأنا وإياهم فى طريق واحدة ... أفهمت عنى يا صديقى ؟ أم ترانى ألغز ؟ ما أحوجك يا صديقى إلى مثل هذه الديار والأطلال فى مثل هذه الأيام !

فهذا جزء من المدحة قد يطول وقد يقصر ، وهو تقليدى قبل كل شئ ، لكنه كان مثابة لنفوسنا تهرع إليها قبل الرياء كما يستريح الواحد منا قبل رحلة شاقة ... وأنت تعرف أن بعضنا كان يطيل فى هذا القسم من القصيدة حتى لكأن ما يأتى بعد ذلك من المديح شئ ثانوى ... لقد كنت أحب هذه الوقفات على الدار حيث أربط ماضى بحاضرى وأقف بينهما حزيناً مضطرباً ... فاقرأ يا صديقى وقفاتى على الدار قراءة جديدة فلعلك تعرفنى منها ، أقرأت :

على مثلها من أربع وملاعب ... أذيلت مصونات الدموع السواكب
أقول لقرحان من البين لم يضف ... رسيس الهوى بين الحشا والترائب
أعنى أفرق شمل دمعى فاننى ... أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب
فما صار فى ذا اليوم عذلك كله ... عدوى حتى صار جهلك صاحبى
وما بك إرشادى من الرشد مركباً ... ألا إنما حاولت رشد الركائب
أميدان لهوى من أتاح لك البلى ... فأصبحت ميدان الصبا والجنائب
أصابتك أبكار الخطوب فشتت ... هواك بأبكار الظباء الكواعب

أرأيت كيف أذلت دمعى على الدار ؟ أرأيت كيف طلبت إلى هذا الصاحب القرحان من البين ، أو الخلى من الحب ، أن يعيننى على البكاء ؟ لكن هذا الصاحب جاهل بالحب لأنه لم يصبه فالتمست له العذر على ضيقى بعذله ، وعرفت أنه إنما يفكر فى ركائبنا قبل كل شئ ، ولا يحب أن يتعبها بكثرة الوقوف والتعريج على مثل هذه الدار . كم من الناس على هذه الشاكلة ؟

ثم يأتى المديح ... فاذا الممدوح أمام عينى الواحد منا دمية بديعة الصنع قد صيغت من شجاعة ونجدة ، وكرم ومروءة ، وما تعرف من هذه الصفات التقليدية ... ومنا من كان يتغنى هذه الصفات بقلبه حقاً ، ومنا من كان يتغناها بعقله من أجل فنه ، ومنا من كان يتغناها بهما

معاً . وهي على كل حال مثل عليا نصوغها أجمل صياغة ، وندلل عليها فى سوق الأدب فنبيعها لمن يشتريها ! فأما الممدوح فينخدع عن نفسه فى كثير من الأحيان ، ويرى وهو يصغى إلى المدحة أنه استحال إنساناً له مثل هذه الصورة التى نصوره عليها . وما يمنع من ذلك ؟ أليس يجمل بالصديق أن يمنح صديقه بعض صفات من النبل حتى لو لم تكن فيه ، لأنه بغير ذلك لا يستطيع أن يراه أو يصاحبه ! ماذا يمنع من هذا الاستنهاض وهذه الاثارة لاسيما إذا كانت تؤدى أداءاً فنياً بديعاً ؟

على أن هؤلاء الأصدقاء من الممدوحين قد كانوا كرماء حقاً ، فهم قد أحسنوا إلينا كثيراً ، وخلطونا بنفوسهم ، وأعجبوا بأشعارنا ، وكان لهم فضل على الحياة الأدبية كلها ... ثم إنهم أحبوا أن يكونوا هذه الدمى التى نشكلها كما نشاء ، ونصوغها كما نحب من الناحية الفنية الخالصة.

أما أنا فقد كان يحلو لى فى كثير من الأحيان أن أصنع دميتى من طينة ضاربة فى البداوة ، ولم يكن يعنينى كثيراً أن ترضى هذه الدمية عن هذه العباءة البدوية أو لا ترضى بقدر ما كان يعنينى أن أرى أنا هذه الدمية كما يشتهى فنى ويحب ... وكثير من هؤلاء السادة الذين مدحتهم وكسوتهم صفات مثالية كانوا لا يحققونها فى أنفسهم ، وربما كانت غريبة عنهم ، لكنهم مع ذلك أحبوها فى أشعارنا ، وأجزلوا عليها عطاءنا ... أتذكر قصتى مع الأمير أحمد بن الخليفة المعتصم حين كنت أنشده سينيتى :

ما فى وقوفك ساعة من باس نقضى زمام الأربع الأدراس

أتذكر أننى عند ما قلت له منها :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندى الفيلسوف ، وكان عند

الأمير وأراد أن يتملقه : « الأمير فوق من وصفت ، كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعراب أجلاف وهو أشرف منزلة وأعظم محلة ؟ » فانقطعت ، وكأنما دارت بى الأرض ، وغصت فى نفسى ، وما هى إلا ومضة خاطر وقدحة فكر ، حتى قلت على الفور :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شروداً فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ومضيت فى قصيدتى إلى أن أتممتها ، وظنوا أنى كنت أعددت هذا الجواب وكتبته مع القصيدة فى القرطاس ، فلما أخذوها من يدى ونظروا فيها لم يجدوا البيتين ، فعجبوا وأثنوا كثيرا على فطنتى وحاضر بديهتى . . . وقال الفليسوف الكندى : « إن هذا الفتى سيموت قريبا لأن نفسه كالسيف الصقيل الذى يأكل حديده غمده ! » ما كان أحمقهم والله فى هذا ! وهبنى كنت أعددت هذا الجواب فهل كنت من البلاهة بحيث أكتبه فى الرقعة ؟

فهل رأيت كيف أنف الكندى أن أشبه الأمير أحمد بن المعتصم بعمرو بن معدى كرب الزبيدى أبى ثور الفارس المشهور صاحب الوقائع والغارات المشهورة فى الجاهلية والاسلام ، وصاحب الصمصامة ؟ أترى كيف أنف الكندى أن أشبه الأمير بالأحنف بن قيس أبى بحر الضحاك صاحب صفين ؟ الأحنف بن قيس هذا الذى دخل على معاوية فقال له معاوية : والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى إلى يوم القيامة ! فقال له الأحنف : « والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى أغمادها ، وإن تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا ، وإن تمش إليها نهرول . » ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت لأخيها : من هذا الذى يهدد ويتوعد ؟ — قال : « هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم

غضب ! » فهذا الذى يأبى الكندى أن أقرنه بأميره أو أقرن أميره به ! وقد يدلك هذا الحادث الفردى على تقلص ظل العرب فى هذه الحياة العباسية ، كما قد يدلك على رد فعل قوى بعث فى نفوسنا هذه المثل العربية القديمة ...

على أن هؤلاء الممدوحين كانوا يرضون كل الرضا من الناحية الفنية الخالصة حتى وإن كانت هذه الملابس البدوية التى نضعها عليهم لا تمت لحياتهم بسبب .

ثم أين كنت أنفق هذه الثروة الضخمة التى أفدتها من إدامة النظر وكثرة القراءة فى الشعر العربى ؟ هذه المعانى التى أنفقت عمرى فى معرفتها لكى أستغلها فى شعرى ... أين كنت أنفق هذا إذا أنا لم أنفقه فى مدح الملوك والأمراء ... ألم يحدثك الرواة أننى كنت أحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة بله القصائد والمقطوعات ؟ وعلى من كنت أعرض معانى التى قتلت نفسى من أجلها إذا أنا لم أعرضها على هؤلاء الكتاب المترفين فى أذواقهم وتفكيرهم وثقافتهم ؟ وشعر الحماسة الذى جمعت منه ما جمعت ، وصنعت منه ما صنعت ، على من كنت أعرضه إذا لم أعرضه على هؤلاء القواد المنتصرين فى حروبهم ضد الروم ؟ لحا الله ابن المعذل ، ولحا الله دعبل ، فلو قد أتيح لها ما أتيح لى من النجاح ما عادانى ولما عيرانى حياة المديح التى قصرا عنها ...! ومع ذلك فقد دفعت ثمناً باهظاً من كدى ودأبى ... أذكر أننى حين كنت بقزوين دخل على يوما أبو الفضل أحمد بن طاهر وحوالى من الدفاتر ما غرقت فيه ، فوقف ابن طاهر على رأسى ساعة وأنا مستغرق فى القراءة ولم أشعر بقدومه ، فحين رفعت رأسى رأيته واقفاً ينظر إلى ، قلت : أبا الفضل ؟ قال : أنا هنا منذ ساعة وأنت لا تعلم بمكانى ، قلت : ذلك لما أنا فيه . ثم سلم وسلمت ، فقال لى : يا أبا تمام إنك تنظر فى الكتب كثيراً وتدمن الدرس ... قلت : والله مالى إلف غيرها ولا لذة سواها . ثم نظر ابن طاهر فرأى كتابين واحداً عن يمينى

والآخر عن يسارى ، وكنت أقرأ فيهما فقال : فما هذا الذى أرى من معاينتك إياه أوكد من غيره ؟ قلت : فأما الذى عن يمينى فاللات ، وأما الذى عن يسارى فالعزى ، أعبدها منذ عشرين سنة ... وكان الذى عن يمينى شعر مسلم بن الوليد صريع الغوانى ، وعن يسارى شعر أبى نواس ...

وحين كنت بمصر أذكر أننى خرجت يوماً والجمل المصرى إلى شاطىء النيل فدفعنا ثيابنا إلى امرأة لغسلها ، ونام هو وجلست أنا ومعى شعر الطرماح ، فما فرغت المرأة من ذق ثيابنا حتى كنت حفظت له خمس عشرة قصيدة ، فلما استيقظ وعلم ذلك أخذه العجب . . .

فهل كنت أعنى نفسى هذا العناء حين أقرأ الشعر القديم كله ، وأحفظ منه آلاف القصائد ، وأتمثل معانيه المختلفة ، هل كنت أعد نفسى هذا الاعداد لأتغنى بجمال صفصافة عجوز تدلت شعورها إلى ماء النيل ؟

ودع الآن هذه الآلاف من الدراهم والدنانير وما أتيح لى بسببها من عيش ناعم ونفع لنفسى ولغيرى وانظر للنجاح الذى أصبت ، فلقد كان لتقدير شعرى أعظم الأثر فى نفسى ، ويكفى أننى أخملت شعراء وقتى ... أتذكر حين كنت أنشد أبا دلف العجلى بائيتى :

على مثلهـا من أربع وملاعب
أذيلت مصونات الدموع السواكب

وكان حوله جماعة من أشراف العرب والعجم ، فلما بلغت إلى قولى :

إذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد تقطع ما بينى وبين النوائب
إذا ما غدا أغدى كريمة ماله هديا ولو زفت لألأم خاطب
وأحسن من نور يفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

فحين وصلت منها إلى قولى :

مكارم لجت فى علو كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

قال أبو دلف : يامعشر ربيعة ما مدحتم بمثل هـذا الشعر قط ، فما عندكم لقائله ؟ فبادرنى القوم بمطارفهم وعمائمهم يرمون بها إلى ، فقال أبو دلف : قد قبلها وأعاركم لبسها وسأنوب فى ثوابه عنكم ، ثم التفت إلى وقال : تمم يا أبا تمام ... فلما بلغت إلى قولى :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

قال أبو دلف : ادفعوا إلى أبى تمام ألف درهم ، ووالله إنها لدون شعره ؛ وحين انتهيت منها قال لى : والله ما مثل هذا الشعر إلا مارثيت به محمد حميد الطوسى ! قلت : وأى ذلك أراد الأمير ؟ قال قولك :

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد حشو ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكى عليه الجود والبأس والشعر

ثم قال أبو دلف : وددت أنها والله لك فى ! — قلت : بل أفدى الأمير بنفسى وأكون المقدم قبله — قال : لم يمت من رثى بمثل هذا الشعر !

فهذا التقدير الذى يبلغ برجل كأبى دلف فيتمنى أن لو كانت هذه المرثية فيه كان عندى كل شىء ، وكان يدفعنى دفعاً قويا إلى الاستمرار فى هذه المدائح حتى كنت أتلمس من أمدحه .

كنت يوما أنشد الحسن بن رجاء قصيدتى اللاميه :

كفى وغاك فانني لك قالى ليست هوادى عزمتى بتوالى

وكان الحسن فى مجلس شرب ، وحين وصلت منها إلى قولى أصف حالى:

عادت له أيامه مسودة حتى توهم أنهن ليالى

قال الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم ... فلما قلت :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى
وتنظرى خبب الركاب ينصها محيى القريض إلى مميت المال

قام الحسن بن رجاء وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ! فقمت لقيامه ، واستأنفت الانشاد إلى أن قلت :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى
كالغيث ليس له — أريد نواله أو لم يرد — بد من التهطال

فأقبل على وعانقنى ، ثم قال : ما أحسن ما جليت هـذه العروس ! قلت : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها ! وأقمت عند الحسن بعد هذه القصيدة شهرين أخذت فيهما عشرة آلاف درهم ، على بخل كان فى الحسن بن رجاء .

فهذا ياصديقى بعض ما كنت أراه من وقع شعرى وتقديرى فى نفوس هؤلاء السادة ، وهذا ما كان يخفف ما كنت أجده من الضيق بحيـاة المديح والسؤال ...

أما ما وصلنى من هبات وصلات فقد كان شيئاً كثيراً حقاً ، ومع ذلك فقد كنت أنفق ما آخذ على كثرته ، أنفقه فى اللذة والترف ، وأنفقه فى البر والخير . والحق أنى كنت أحب الحياة المترفة ، فاتخذت بطانة

لى من الغلمان ، وكنت أحب أن أشرب وأطرب ، فاذا خلت يدى شكوت لبعض هؤلاء الأصدقاء ممن كنت أمدحهم فيبعثون إلى بما كان يكفل لى حياة البذخ .

أذكر أننى خرجت إلى خالد بن يزيد الشيبانى وكان يلى أرمينية فامتدحته فأمر لى بعشرة آلاف درهم ونفقة لسفرى ونصحنى ألا أقيم إن كنت أعتزم السفر . وودعنى ومضت أيام ، فركب خالد يتصيد فرآنى تحت شجرة وقدامى زكرة فيها نبيذ وغلام بيده طنبور . فقال : حبيب ؟ — قلت : خادمك وعبدك ! — قال : ما فعل المال ؟ — قلت :

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئاً لدى من صلتك
ما مر شهر حتى سمحت به كأن لى قدرة كقدرتك
تنفق فى اليوم بالهبات وفى الساعة ما تجتنيه فى سنتك
فلست أدرى من أين تنفق لو لا أن ربى يمد فى هبتك

فابتسم خالد وأمر لى بعشرة آلاف أخرى .

والحق أن صداقة بعض هؤلاء الممدوحين كانت أحب إلى نفسى من كل ما أصبت من صلات . أحببت كثيراً منهم وعاشرتهم معاشرة الأصدقاء ، وكانت هذه الصداقة وهذه العشرة كثيراً ما تنتج أدباً ظريفاً نرسل فيه نفوسنا إرسالا . وما أكثر ما أنتج عبثنا ومجوننا من معان صغناها فى شعر لطيف تهادينا به ، فبعضه ذاع وطار بين الناس ، وبعضه الآخر لم يسمع به غيرنا ... من ذلك أنه كان لى غلام رومى ، وعند الحسن بن وهب غلام خزرى ، وكان الحسن كثيراً ما يثيرنى حين يتعشق غلامى ، وكان بعض الأصدقاء من خاصتنا يغمزنى ويستثيرنى لهذه العلاقة بين الحسن وبين غلامى . قال لى بعضهم يوماً : غلامك أطوع للحسن من غلام الحسن لك ! — قلت : لأن غلامى يجد

عنده ما لا يجد غلامه عندى ، أنا أعطى ذاك قيلا وقالا ، وهو يعطى غلامى مالا ! لكن الحسن لم يسكت ولم يقف عند حد ، فقد رأيته يوماً يعبث بغلامى فاغتظت ثم قلت له أهدده : والله لئن أعنقت إلى الروم لنركضن إلى الخزر ! فقال ابن وهب : لو شئت لحكمتنا واحتكمت ! — قلت : أنا أشبهك بداود وأشبهنى بخصمه ... قال : لو كان هذا منظوماً خفناه ، فأما منثوراً فهو عارض لا حقيقة له . فما لبثت أن عملت هذه القصيدة الرائية :

أبا على لصرف الدهر والغير وللحوادث والأيام والعبر

وفيها من العبث ما تعرف :

كان ذلك أيام كان ابن الزيات يزر للواثق ، وكان هذا الوزير قد وقف على ما بينى وبين الحسن فى غلامينا . وابن الزيات شاعر أديب قبل كل شئ . فتقدم إلى بعض ولده — وكانوا يجلسون عند الحسن بن وهب أن يعلموه خبرنا مع غلامينا ، حتى عزم غلامى يوماً على الحجامة ، فكتبت إلى الحسن رقعة أعلمه بذلك ، وأسأله التوجيه لى بنبيذ ، فوجه إلى بمائة دن ومائة دينار وخلعة وبخور ، وكتب شعراً ظريفاً يتغزل فيه بغلامى ، ويظهر أنه كان يريد أن يرسل شعره هذا مع هديته لكنه أبقاه عنده حتى نتقابل فيطلعنى عليه . وكتب الشعر فى رقعة ووضعها تحت مصلاه . فبلغ الوزير خبرها فوجه إلى الحسن فشغله بشئ من أمره ، ثم أمر من جاءه بالرقعة ، فوجد الحسن يقول :

ليت شعرى يا أملح الناس عندى هل تداويت بالحجامة بعدى ؟
دفع الله عنك لى كل سوء باكر رائح وإن خنت عهدى
قد كتمت الهوى بمبلغ جهدى فبدا منه غير ما كنت أبدى
وخلعت العذار فليعلم الناس بأنى إياك أصفى بودى

وليقولوا بما أحبوا إذا كنت وصولا ولم ترعنى بصد
من عذيرى من مقلتيك ومن إشراق ثغر من تحت حمرة خد ؟

فلما قرأها ابن الزيات كتب فى الرقعة على لسانى :

ليت شعرى عن ليت شعرك هذا أبهزل تقوله أم بجد
فلئن كنت فى المقال محقا يا ابن وهب لقد تطرفت بعدى
وتشبهت بى وكنت أرى أنى م أنا العاشق المتيم وحدى
. . . الخ .

ثم قال ضعوا الرقعة مكانها . فلما عاد الحسن إلى بيته وتناول الرقعة وقرأها عرف كل شئ فقال : إنا لله ! افتضحنا والله عند الوزير ! وأعلمنى بما كان ووجه إلى بالرقعة . وبعد أيام لقينا الوزير لنعتذر إليه فقلنا له : إنما جعلنا هذين الغلامين سبباً لتكاتبنا بالأشعار ! فقال — ويا لها من كلمة — : ومن يظن بكما غير هذا ! فكان قوله هذا أشد علينا . . .

وهكذا ياصديقى كنت أحيى مع بعض هؤلاء الأصدقاء من ممدوحى ، فلا تحسبن موقفى منهم جميعاً كان موقف المادح الذى يقول المدحة وينتظر النوال عليها ، ثم لا يكون بينه وبين ممدوحه أكثر من هذا ...

على أنى أنا الآخر كنت فى بعض الأحيان سيداً كهؤلاء السادة أعطى من جاء يستجدينى ، وأحب أن يكون لى حظ من الجود والكرم ، بل لعلنى لم أخدم هؤلاء القوم إلا من أجل أن يخدمنى قوم آخرن ، وأنا القائل :

ومن خدم الأقوام يرجو نوالهم فانى لم أخدمك إلا لأخدم

وما أحب أن أزكى لك نفسى وأظهرك على ما أنفقته فى ذلك لولا

أنى أحب أن تعلم أنى كنت آخذ لأعطى ، وأستجدى لأجود ، ولولا أنى أحب أن أقول لك إنه بغير هذه الصلات لم أكن أستطيع إرضاء هذه النزعة من الخير فى نفسى . . . كنت أساعد أهلى وأساعد أصدقائى ، وأشعر انى أنا الآخر موضع رجاء وأملا عند بعض العفاة ... كان هذا المال الذى أتكسبه ثم أنفقه يجعلنى أحس أنى شىء له بعض النفع فى الحياة ... وإذا كان هؤلاء السادة من المدوحين أخذوا منى أكثر مما أعطونى ، فأنا الآخر يخيل لى أنى أخذت من أصدقائى الذين طلبوا نوالى أكثر مما ساعدتهم به ! إنما أعطيتهم مما بقى فى يدى من هذه الصلات ، أما هم فقد أعطونى شعوراً بانسانيتى ولذة لنفسى وقيمة لحياتى ، كما أعطونى معانى لشعرى . . .

حضرنى مرة أحمد بن أبى فنن الشاعر وقد وصلت بمائتى دينار فدفعت منها إلى رجل كان عندى مائة ، فنظر إلى أحمد وتعجب وأخذ يلومنى على إعطاء ما أعطيت ويقول : لو كان شقيقك ما عذرتك مع اضطراب حالك ... لكن ترى أين تكون هذه المائة دينار بجانب ما امتلأت نفسى به بعد ذلك من شعور بانسانيتى وقيمة لحياتى ؟ أنظر كيف قلت بعد ذلك من قصيدة :

ذو الود منى وذو القربى بمنزلة ... وأخوتى أسوة عندى و إخوانى
عصابة جاورت آدابهم أدبى ... فهم و إن فرقوا فى الأرض جيرانى
أرواحنا فى مكان واحد وغدت ... أبداننا لشآم أو خراسان
ورب نائى المغانى روحه أبدا ... لصيق روحى ودان ليس بالدان

وكنت أطلب من بعض ممدوحى أن يعينى على قضاء حق هؤلاء الأصدقاء فأقول من هذه القصيدة :

لا تخلقن خلقى فيهم وقد سطعت ... نارى وجدد من حالى الجديدان
فى دهرى الأول المذموم أعرفهم ... والآن أنكرهم فى دهرى الثانى ؟

لاقى إذن غرسهم أكدى ندى وجرت ... منى ظنونهم فى شر ميدان
أخى أخ لى فرد لا قسيم له ... فى خالص الود من سرى وإعلانى
مسلط حيث لاسلطان لى ويدى ... مغولة النفع والسلطان سلطانى
ترد عن بحرك المورد راجعة ... بغير حاجتها دلوى وأشطانى
كالنار باردة فى عودها ولها ... إن فارقته اشتعال ليس بالوانى؟!
ما أنسى لا أنسى قولا قاله رجل ... غضضت فى عقبه طرفى وأجفانى
نل الثريا أو الشعرى فليس فتى ... لم يغن خمسين إنساناً بانسان

وهكذا كنت أجد نفسى أتغنى هذه المثل فى الخير والوفاء ، وهكذا كانت هذه المائة دينار التى دفعتها لهذا الرجل أحلى مذاقا فى حلقى من كل شىء ...

وكان بعض هؤلاء الأصدقاء الملقين يصادفنى حين يجيئنى مفلساً مثله ، فأحتال له وأجعل من موقفى منه موضوعاً لشعر يشفع له عند بعض من كنت أستجديهم . جاءنى بعضهم يوماً وكان قد بلغه أنى أفدت وأثريت فأسقط فى يده حين وجدنى مفلساً مثله ، ولكنى قلت له : لو جمعت ما آخذ ما احتجت إلى أحد ، ولكنى آخذ وأنفق وسأحتال لك ، وكتبت إلى أبى سعيد بهذه الأبيات :

لازلت من شكرى فى حلة ... لابسها فى سلب فاخر
يقول من تقرع أسماعه ... كم ترك الأول للآخر
لى صاحب قد كان لى مؤنساً ... ومألفاً فى الزمن الغابر
تحمل منه العيس أعجوبة ... تجدد السخرى للساخر
ذا ثروة يطلب من سائل ... ومحفماً يطلب من شاعر !
فشارك المقمور فيه ولا ... تكن شريك الرجل القامر
فرفدك الزائر مجد ولا ... كرفدك الزائر للزائر

فوجه لى أبو سعيد بثلثمائة دينار ولهذا الصديق بمائتى دينار ، فأعطيته

خمسين دينارا حتى شاطرته ... أرأيت إلى بركة هذا الصديق على جيبي وعلى شعري ؟

وما كان أحد أخص بسليمان بن وهب منى ، ولا كان يأنس بأحد أنسه بى ، وكان كثيراً ما يعاتبنى على كثرة ما آخذ من الأموال و إنفاقها حتى بقيت محتاجاً ، فعرفته من إجرائى على أمل لى بالشام ، وشرحت له خبرى مما لم يستحل معه بعد ذلك لومى . ولقد كان لهذا العتاب من سليمان بن وهب فى نفسى أثر أى أثر ، فتهيأت نفسى للشعر ، وقلت هذه البائية وهى من أحب قصائدى إلى :

أى مرعى عين ووادى نسيب لحبته الأيام فى ملحوب

وقد لا تصدقنى إذا قلت لك إننى لم أحس قدر نفسى وأشعر بقيمة حياتى مثلما شعرت فى حادث بسيط تافه ربما كان يدعو إلى الضحك . كنت عند الحسن بن رجاء حين دخل علينا حاجبه وهو يبتسم ، فقال له الحسن : ما شأنك ؟ — فقال : بالباب رجل يستأذن ويزعم أنه أبو تمام الطائى ... فضحك الحسن وقال : قل له ما حاجتك . فقال الحاجب : يقول مدحت الأمير — أعزه الله — وجئت لأنشده . قال الحسن : أدخله . ودخل شيخ يبدو أنه ظريف ، فلم يقل له الحسن شيئاً حتى حضرت المائدة ، فأمر الحسن فأكل معنا ، وبعد الطعام قال له : من أنت ؟ — قال الرجل : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، مدحت الأمير أعزه الله — فقال الحسن : هات مدحك . فأنشده قصيدة حسنة من شعرى ، فقال الحسن : أحسنت وقد أمرت لك بثلاثة آلاف درهم . ولم يظهر على أحد من الحاضرين شئ لأن الحسن كان قد تقدم إلينا قبل دخول الرجل ألا نقول له شيئاً . ثم أشار إلى الحسن ، فتقدمت إليه وطلبت منه أن يجيز لى بيتاً من الشعر ، فلجلج المسكين واضطرب ، فصحت فى وجهه وأنا أصطنع الغضب : ويحك ! أما تستحى أن ادعيت اسمى واسم أبى ونسبى وأنا أبو تمام ؟ فضحك الرجل وقال : لا تعجل

على حتى أحدث الأمير — أعزه الله — قصتى . أنا رجل كانت لى حال تغيرت ، فأشار على صديق لى من أهل الأدب أن أقصد الأمير بمدح ، فقلت له : لا أحسن — فقال : أنا أعمل لك قصيدة ، فعمل هذه القصيدة ووهبها لى ، وقال لعلك تنال بها خيراً ... فضحك الحسن وضحكنا جميعاً ، وأحببنا الرجل لصراحته التى تشبه السذاجة ، وأشفقنا عليه لعوزه واضطراب حاله ، وقال له الحسن : قد نلت ماتريد وقد أضعفت جائزتك . ثم صار ينادمه طول يومه ، وصرنا نتولع به ونكنيه أبا تمام .

على أن هذا الشر الذى كان يؤذى نفوسنا حين نستجدى الممدوحين فيبطئون علينا ويعرضون عنا كان هو الآخر نوعا من الخير لأن إعراضهم عنا أو تجهمهم فى وجوهنا أو بخلهم ومطلهم كان باعثاً قويا على عمل الشعر فى العتاب أو الهجاء أو شكوى الزمان ، وقد ترك هذا قدراً كبيراً فى الشعر العربى كما تعلم . والحقيقة أنهم جميعا — أعنى الممدوحين — لم يكونوا ليستحقوا منا كل ما صنعناه بهم لولا هذا التجنى الذى استبد بنا ، ولولا أننا كنا نلتمس هذه الاثارة عن طريق سلبى كما نلتمسها عن طريق إيجابى .

وأنا لاأستطيع فى هذا الوقت المحدود أن أحدثك بكل ما كان بينى وبين ممدوحى فأنت تعلم أنهم كثرة — وهل تركت أحداً من رجال الدولة لم أقصده بمدح ؟ لكنى أذكر لك شيئا من ذلك لترى ماقلت لك من هذا الصراع الذى ملأ حياتنا ، ولترى مع هذا فضل حياة المديح تلك على حياتنا الوجدانية .

كنت فى مصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وكانت مصر فى ذلك الوقت مسرحا لفتن كثيرة وحروب دامية ، تقسم أمرها ولاة متباغضون وأحزاب كثيرة متناحرة ، فهذه القبائل العربية التى هبطت أرضها لاتزال تحمل معها داءها القديم ، أعنى العصبية بين القيسية واليمنية ، وهؤلاء أهل مصر فرقتان بين الأمين والمأمون ، والناس جميعا متظلمون

من الولاة وتعسفهم فى جباية الخراج ، والعداء مستحكم بين الجند و بين أهل الحوف الذين كانوا بجهة بلبيس ، وكان قوم من الأندلسيين قد أغاروا على الاسكندرية فظل المصريون يحاربونهم ليجلوهم عنها ... كان كل شيء فى مصر فى ذلك الوقت ثائراً مضطرباً ، وأنت تعلم أن الأدب يفيد أحيانا من هذه الثورات ، وظهر بعض الشعراء يذكون من هذه العصبيات ، ويصفون المواقع الكثيرة ، وكان أنبههم ذكراً وأكثرهم شعراً إثنان المعلى الطائى وصاحبه سعيد بن عفير .

وكنت أعددت عدتى ووثقت من قدرتى ، ورأيت أن هذه المواقع خليقة أن تذكر وأن تصور ، وفى جعبتى لها من الشعر القديم قدر غير قليل . وكان على فى بادىء الأمر أن أتصل بأمير من الأمراء أو قائد من القواد أمدحه ، فاتصلت بالمطلب الخزاعى والى مصر لعلى أحقق عنده مالم يحققه دعبل الخزاعى من قبلى ، وقد ولى المطلب أمر مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨ هـ ، لكنه ما لبث أن عزل عنها حين هزمه ابن السرى ، ثم عاد فولاها ثانية حين انتصر على أهل الحوف ، وما زال المطلب يولى ويعزل إلى أن انقضى القرن الثانى الهجرى وأنا دائب الجد لأكون شاعره الذى يشيد بانتصاراته لاسيما أنه من عيون اليمنية بمصر ، ولى بهذه اليمنية وشيجة حدثتك عنها . لكن المطلب خيب ظنى بما كان يلحقه من هزيمة ، وخيب ظنى كذلك ببخله حتى صفرت منه يدى ، وأسفت على ما أزجيته له من مديح ، ولعلك تذكر هذين البيتين اللذين أنهيت بهما عشرتى معه فربما وقفاك على شيء من إسخريتى الحزينة :

أول عدل منك فيما أرى أنك لاتقبل قول الكذب
مدحتكم كذبا فجازيتنى بخلا ، لقد أنصفت يامطلب !

كانت خيبة صادقتها لكنها لم تثنى عما اعتزمته ، فاتصلت بعده بقائد يمنى آخر هو عياش بن لهيعة الحضرمى ، وحديث عياش هذا قد يطول بعض الشيء فالى لقاء آخر فى ليلة قريبة إن شاء الله .

٤

فى مصر مع عياش

قال أبو تمام :

حاولت أن أحقق عند عياش مالم أحققه عند المطلب فكانت لى معه قصة تشبهها قصة المتنبى مع كافور من بعدى ، وتشبه قصة أبى نواس مع الخصيب من قبلى . وكأن قصة كل منا مع صاحبه ليست فى الحقيقة إلا قصة الحياة ومفارقاتها حين تجعل من الشاعر مداحة يستجدى على حين تجعل من غيره أميراً يجود ويعطى ...

والفصل الأول من هذه القصة أمل مرتقب حين يتهافت الشاعر منا على هذا الأمير أو ذاك ، ويرحل إليه من أقصى الأرض ، حتى إذا جاءه لم يجد عنده ما كان يرجوه ، لأن ما يرجوه الواحد منا شىء لا يكاد يجد . ذلك لأن حياتنا الأدبية من طبيعتها دائما أن تبسط من أحلامنا وتمد من آمالنا ، وبغير هذه الأحلام البعيدة الممتدة ، وبغير هذه الآمال العريضة المسرفة كان يخيل إلينا أننا لانستطيع الحياة ، فكنا نطلب على قدر خيالاتنا فنكثر من الطلب ، ونتجنى فنكثر من التجنى ...

وفى الفصل الثانى يدب إلى النفس بعض اليأس ، لكن هذا اليأس مشوب بخوف وحذر ، فنعمد إلى العتاب الذى تتأرجح فيه النفس بين الظن واليقين ، وبين الأمل والخيبة .

وفى الفصل الثالث تكون النتيجة المنتظرة والخاتمة المحققة حين يأمن

الشاعر منا على نفسه فيطلق من لسانه ويتشفى من الحياة كلها حين يتشفى من ممدوحه .

مدحت عياشا بعدة قصائد ، فلم أجد عنده ما كنت أرجوه ، فعاتبته ، ثم انقلب العتاب آخر الأمر إلى هجاء . وكنت أستطيع أن أقصر معه لولا أن نفسى هذه الوقت كانت ساخطة على كل شىء .

كانت أولى قصائدى فيه هذه البائية .

تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى وليس جنيبى إن عذلت بمصحبى

وقفت على الدار وقفة طويلة ، وذكرت حديث صاحبتى وإشفاقها على ، وما كان منها عند سفرى حين حذرتنى المخاطر ، ولكنى أظهرت لها زماع نفسى وجلدى ومضائى ، وغالبتها مغالبة عنيفة وقلت لها :

أحاولت إرشادى ؟ فعقلى مرشدى
أم استمت تأديبى ؟ فدهرى مؤدبى
هما أظلما حالى ثمت أجليا
ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب
شجى فى حلوق الحادثات مشرق
به عزمه فى الترهات مغرب
كأن له دينا على كل مشرق
من الأرض أو ثأراً لدى كل مغرب

ومضيت إلى المديح ، فخلعت على صاحبى ما تعرف من هذه الصفات ، وذكرت له هذه القربى التى بيننا متقربا إليه بها ، ثم عدت فأرضيت كبريائى حين ذكرت له أنى إنما قصدته لأتغنى مجده وأشيد بمآثره ، لا أنى فقير معدم قد أحوجنى إليه فقرى ، ولا أنه قد نبا بى بلدى ، فلى فى مصر كما قلت له قرابة سواه من اليمانية ، وإنما فضلته عليهم لأن لى فيه رأيا ومذهبا .

وما ضيق أقطار البلاد أضافنى إليك ولكن مذهبى فيك مذهبى
وأنت بمصر غايتى وقرابتى بها وبنو الأعمام فيها بنو أبى

ثم ذكرته بما سيكون عليه أمرى من خيبة مريرة وشماتة ممضة إن هو أخلف ظنى ولم يحقق رجائى ، وطلبت إليه أن يرعى حرمتى ، ويكون عند حسن ظنى ، وأن يفكر فيما سيفيده من شعرى :

ولا غرو أن وطأت أكناف مرتعى لمهمل أخفاضى ورفهت مشربى
فقومت لى ما اعوج من قصد همتى وبيضت لى ما اسود من وجه مطلبى
وهاتا ثياب المدح فاجرر ذيولها عليك وهذا مركب الحمد فاركب

لكن عياشا لم يقبل على هذا الاقبال الذى كنت أرجوه وأطمع فيه ، أو إنه قد خيل إلى هذا . لم أقطع منه أملى عند هذا اللقاء الأول ، وصرت أقول له المدحة تلو المدحة وهو لا ينيلنى أملى ، إلى أن صرت أغتصب بعض هذا المديح اغتصابا ، وأتكلفه تكلفا ظاهرا ، حتى جاء بعضه غثا لا أثر للحياة فيه ، بل جاء بعضه سمجا مضحكا . أقرأت قصيدتى السينية :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوسا

أرأيت مافيها من استعارات مضحكة وتكلف بارد ؟ كأنى إنما أردت أن أتسلى بهذه الاستعارات الغريبة المضحكة . أنظر إلى قولى لصاحبتى :

لو تشهدين أقامى الدمع منهمراً والليل مرتتج الأبواب مطموسا

أو أنظر إلى قولى أصف حالى :

استنبت القلب من لوعاته شجرا من الهموم فأجنته الوساويسا

فاضحك ماشئت من هذه المزرعة التى صنعها الخيال فجعل القلب يزرع فيها ، ثم يسقى باللوعة ، ثم ينبت الهموم ، فاذا جاء وقت الحصاد لم يكن المحصول غير الوساوس !

ثم انظر إلى شاعرك هذا المسكين الذى يضطر أن يتساخف حين يحاول أن يرضى ممدوحه بما يتكلف من المعانى ، ويصطنع من الصور ويتبدع ويخترع ، فاذا عرض لهذه الرعاية أو تلك الحرمة التى يدعيها دائما الشعراء على من اتصلوا بهم ويحاسبونهم بعد ذلك عليها شبهها بالوقف المحبوس الذى لايتغير و إن نال منه البلى ...

لى حرمة بك أمسى حق نازلها وقفاً عليك ـ فدتك النفس ـ محبوسا

ومن يدرى فلعله كانت هناك صلة ما بين ملابسات حياتى فى هذه الأيام وبين هذه الاستعارة المضحكة ، فربما كنت أحب أن يحبس هذا الأمير على وقفاً من هذه الأوقاف الكثيرة عندكم بمصر ...

وقد عرفت أنكم تدرسون علم النفس الأدبى عندكم بكلية الآداب فلا تنس ياصاحبى أن ترجع إلى هذه القصيدة وتتأمل استعاراتها وتشبيهاتها فهى على كل حال تدلك على نفس متثاقلة ومزاج غريب ، ومن يدرى فلعلك تستطيع أن تعرف تحت أى تأثير تراءت لى هذه الصور فيها ! ...

لم يجدنى ياصديقى هذا المدح الخالص ، ولم يجدنى هذا العتاب الذى اصطنعته ، وبدأت أستشعر اليأس ، فأخذت أبث فى شعرى له بعض تأملاتى فى الحياة وحظوظ الناس ، محاولا أن أكظم غيظى بهذه الفلسفة الساخرة التى تنتهى إلى التعريض به ... أقرأت قصيدتى البائية « عنت فأعرض عن تعريضها أربى » أرأيت كيف قارنت بين هؤلاء الصبية الصغار الذين يلعبون فيتخذون من العصى خيلا وبين هؤلاء لفرسان الكماة ؟ ولا تنس أن عياشاً كان قائداً كبيراً — فهؤلاء

الغلمان تبسم لهم الأيام دائماً وتستقيد لهم الحوادث ، فأما أولئك الكماة فان الحوادث دائماً تصرفهم للشر وتنال منهم :

وحادثات أعاجيب حساً وزكاً ما الدهر فى فعله إلا أبو العجب
يطلبن قود الكماة المعلمين بها ويستقدن لفرسان على القصب

وأخذت فى هذه الفترة أستعرض حياتى لأنى كنت وقتئذ فى مفترق الطرق ، فصرت أنظر إلى نفسى ، وأتأمل حاضرى ، وأسترجع ماضى . كنت لا أدرى أأصبت حقا فيما أخذت به نفسى من الجد والدأب المتواصل والجهد العنيف ، أم كان ذلك منى حماقة وغفلة . أحسست أن نفسى موشكة على التدلى فى قرارة سحيقة من اليأس المطبق لولا بقية من أمل كانت تردها إلى الحياة ... والحزم والصبر ، والقضاء والقدر ، والجد وطلب المجد واحتمال الجهد ... كل هذا كان فى الحقيقة مبكى لنفوسنا ، وثلجا لصدورنا ، وشفاءاً لغليلنا ... كان هذا الظل الهادئ الحزين الذى تستظل به نفوس الشعراء حين تقسو عليهم حياة السؤال والطلب ... أنظر كيف كنت أمسك بنفسى الجزعة فأطمئنها بما أصطنع من حكمة وأدعى من شجاعة ... سأتلو عليك قسما من هذه القصيدة فلا تضق به ، لأنه فى الحقيقة قطع من نفسى المكدودة المتعبة التى تلتمس لها مخرجا من ضيقها ونكدها فى هذه الفترة ... ثم انظر كيف أرتدى جبة هذا الفيلسوف الهادئ الرزين وأنا فى الحقيقة ساخط حزين ... انظر كيف أفلسف الأشياء ثم أعيى عن فلسفتها ، ثم اعتذر آخر الأمر اعتذاراً مليئا بالحسرة والأسف ... لقد سخرت أخيراً من عقلى الذكى الواسع الحيلة لأنه لم يستطع أن يرد عن نفسى حزنها ، وسخرت من ذكائى وعرفت أنه ليس كل شئ فى الحياة ، لأنه بغير المال لا يظهر ذكاء ولا يبين فهم ... المال هو قطب الرحى يا صاحبى ! أليس كذلك ؟

مايحسم العقل والدنيا تساس به ... مايحدث الصبر فى الأحداث والنوب
الصبر كاس وبطن الكف عارية ... والعقل عار إذا لم يكس بالنشب
ما أضيع العقل إن لم يرع ضيعته ... وفر وأى رحى دارت بلا قطب
نشبت فى لجج الدنيا فأثكلنى ... مال ، وأبت بعرض غير مؤتشب
أغضى إذا صرفه لم تغض أعينه ... عنى وأرضى إذا مالج فى الغضب
وان بليت بجد من حزونته ... سهلته فكأنى منه فى لعب

ثم أقول :

بأى وخد قلاص واجتياز فلا ... إدراك رزق إذا ماجد فى الطلب
ماذا على إذا ما لم يزل وترى ... فى الرمى أن زلن أغراضى ولم أصب
فى كل يوم أظافيرى مقلمة ... تستنبط الصفر لى من معدن الذهب
ما كنت كالسائل الأيام مختبطا ... عن ليلة القدر فى شعبان أو رجب
بل قابض بنواصى الأمر مشتمل ... على قواصيه فى بدء وفى عقب
مازلت أرمى بآمالى مراميها ... لم يخلق العرض منى سوء مطلبى
إذا قصدت لشأو خلت أنى قد ... أدركته أدركتنى حرفة الأدب

وقلت لعياش بعدها بائية أخرى « متى يرعى لقولك أو ينيب » شكوت لها فيها الخيبة التى لقيتها بمصر ، وذكرت حنينى إلى أهلى ، وأظهرت قنوطى من هذه اليمانية التى كنت أظن أن وشيجتها ستمد لى من أسباب الرزق ، وندمت على هذا السلف العظيم منهم الذى ثوى بسفح المقطم ، قلت فيها :

وكم عدوية من سر عمرو ... لها حسب إذا انتسبت حسيب
لها من طيىء أم حصان ... بخيبة معشر وأب نجيب
بمنى أن يعود لها حبيب ... منى شططاً وأين لها حبيب ؟
ولو بصرت به لرأت جريضاً ... بماء الدهر حليته الشحوب
فأصبح حيث لانقع لصاد ... ولا نسب يلوذ به حريب

ثم قلت — واستسمحك فى ذلك فما كرهت مصر ولكنى كرهت بعض من كان بمصر من قادتها وزعمائها —

بمصر وأى مأربة بمصر ... وقد شعبت أكابرها شعوب
وودأ سيبها ما ودأته ... يحابر فى المقطم بل تجيب
بل الحيان حيا حضرموت ... فحارثها وإخوتها شبيب
فخولان فيحصب كان فيهم ... وفيا غالهم عجب عجيب
مضوا لم يخز قائلهم فعال ... ولم يجدب فعالهم جدوب

وذكرت فى هذه المحنة صديقى أبا سعيد الثغرى وشكوت إليه ماألقاه :

تحيفت الأمور أبا سعيد ... وضاق بأهله اللقم القريب
وأمسى الناس فى عمياء ألوى ... بأنجمها وأشمسها الغروب
لهم نسب وليس لهم فعال ... وأجسام وليس لهم قلوب

وما زلت كاظما غيظى سالكا طريق التعريض والشكوى ، حتى بدأت أتعجل اليأس وأفضله على هذه الصلات القليلة وهذه العلاقة الفاترة بينى وبين عياش ، وفى قصيدتى التى عاتبته فيها :

« ذل السؤال شجى فى الحلق معترضٌ »

ترى عتابى يوشك أن ينقلب إلى هجاء حين وقفت منه موقف المستفهم الذى يريد أن يلقى صاحبه أو يلقاه صاحبه وجهاً لوجه بعيداً عن بطانة السوء ... فاما صداقة ومال وإما منع وارتحال ... والحقيقة انى لم أكن أدرى ماذا أصنع فلا أنا يائس ولا أنا قانع ... أنظر ماذا أقول له :

من أشتكى وإلى من أغتدى وندى ... من أجتدى ، كل أمرى فيك منتقض
مودة ذهبت أثمارها شبه ... وهمة جوهر معروفها عرض

أظن عندك أقوام ؟ وأحسبهم ... لم يأتلوا فى ما أعدوا وما ركضوا
يرمونني بعيون حشوها شرر ... نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضى وانتظار غد ... والكظم حتم على الدهر مفترض
لما فككت رقاب الشعر عن فكرى ... ولا رقابهم إلا وهم حيض
أصبحت يرمى نباهاتى بخامله ... من كله لنبالى كلها غرض !

لم آل فى عياش عتاباً ، هادئاً تارة وثائراً ساخطاً تارة أخرى ، أرجو وأذكر ، وأهدد وأتوعد ، لكن عياشا ظل يطاولنى مطاولة ثقيلة ممضة ، فكنت أصبر وأسخر ، صبراً مصطنعاً ، وسخرية حزينة ، وبعثت إليه بقصيدة رائية :

« صدقت لهيا قلبى المستهتر »

تمنيت فيها لو صرح لى بعجزه حتى أقوم بعذره :

قد كدت أن أنسى ظماء جوانحى ... من بعد شقة موردى أو مصدرى
ولئن أردت لأعذرنك مجملا ... والعجز عندى عذر غير المعذر
ما إن أرانى مادحاً ومعاتباً ... إلا وقد حررت فيك فحرر
واعلم بأنى اليوم غرس محامد ... تزكو فتجنيها غداً فى العسكر

كما بعثت له برائية أخرى ظهر فيها ضيق صدرى وحرجى ، فزفرت أنفاساً حارة صادرة عن صدر معبأ محتبس . أنظر إلى بحر هذه القصيدة فانك تستطيع أن تطيل إنشادها ما استطعت أن تطيل لأنها فى الحقيقة زفراتى الحارة الطويلة المتصاعدة :

ليس يدرى إلا اللطيف الخبير ... أى شىء تطوى عليه الصدور
ويقولون أنك المرء بالغيب محام عن الصديق تصور
فاذا جئت زائراً حجبت وجهك عنى كآبة وبسور

فتطلق فى العناية أن البشر فى أكثر الأمور بشير
إن فى البشر روضة فاذا كا ن ببذل فروضة وغدير
فاقسم اللحظ بيننا إن فى اللحظ لعنوان ما تجن الصدور

ولست أدرى أكان من الخير أن يطول إعراض عياش وبخله أكثر مما طال فأقول فيه أكثر مما قلت ، أم كان من الخير لى وله أن ينتهى الموقف عند حد ، لأنى بعد ذلك صرت أسخر منه سخرية لا مداراة فيها ولا خداع . أقول له من مقطوعة :

إن كنت فى المنع ذا صبر وذا جلد فلست فى الذم ذا صبر وذا جلد

وأقول من أخرى :

كم ماجد سمح تناول جوده مطل فأصبح وجهه نائله قفا !

ومضى تسعة أشهر فقلت :

لاتنس تسعة أشهر أنضيتها دأباً وأنضتنى إليك ونيفا
بقصائد لم يرو بحرك وردها ولو الصفا وردت لفجرت الصفا

واكتمل العام ، ومضى الأضحى والفطر ، لكن أملى وكان صائماً هو الآخر لم يفطر ! ووضعت الحامل ما تحمل لكن رجاء عياش لم ينتج بعد ، فقلت :

العيد والأضحى قد انسلخا ولى أمل بنابك صائم لم يفطر
عام ولم ينتج رجاك وإنما تتوقع الحبلى لتسعة أشهر
جد لى ببحر واحد أغرقك فى مدح أجيش له بتسعة أبحر

وأخيراً نخلع هذه الثياب الجميلة التى وضعناها على تلك الدمية ، ونجردها منها لنلبسها ثياباً أخرى سداها ولحمتها من الهجاء ، وبعد أن كانت الدمية إلهاً صغيراً نعبده تصبح شيطاناً نسبه ونرجمه !

وربما ضحكت مني في هذا الفصل الثالث من الدراما التي يحب الشعراء أن يمثلوها دائماً مع ممدوحيهم ، حين ترانى أمسخ أحياناً هذه الدمية مسخاً مزرياً يثير الضحك ، وأحياناً ترانى مثل هذا الثعلب الذى ادعى مرارة العنب بعد أن أخفق في الوصول إليه ، وأحياناً أخرى ترانى في صورة الضعيف المبتئس الذى لا يملك إلا دعاءاً كدعاء العجائز ، كما ترانى أحياناً في صورة الطالب الذى يصفر في شارع الجامعة صفيراً مضطرباً حزيناً حين يقفل راجعاً من الكلية وقد عرف نتيجة الامتحان ! وكان أكثر ما قلت في هذا الفصل مقطوعات صغيرة كأن كل واحدة منها كلمة أسف ، أو قلب شفة ، أو هزة رأس ! مرة أقول :

ندبتك للجزيل وأنت لغو ظلمتك لست من أهل الجزيل
كلا أبويك من يمن ولكن كلا أبوى نوالك من سلول

ومرة أقول :

أيا من أعرض الله عن العالم من بغضه
ويا من بعضه يشهد بالبعض على بعضه
ويا أثقل خلق الله من ماش على أرضه
ومن عاف مليك الموت واستقذر من قبضه

وأدعو عليه فأقول :

ليسودن بقاع وجهك منطقى أضعاف ما سودت وجه قصيدى
وليفضحنك في المجالس كلها صدرى كما فضحت يداك ورودى
ما كان خبرنى القياس بباطل عنكم ولكن جرت في التقليد

أرأيت إلى هذا القياس والتقليد في النوال ؟

وهكذا تشفيت منه وأسدل الستار وخرجت من مصر وأنا أقول هذه اللامية المليئة من نفسى :

« أصب بحميا كاسها مقتل العذل »

على أنى قد أظلم عياشا إذا قلت لك إنه وحده كان سبب ابتئاسى وخروجى من مصر ساخطا ، لأنى كنت حاولت أن يظهر أمرى مع غيره فى هذه الأثناء لكنى أخفقت أيضا .

ذلك أنه حين استفحل أمر الحوفية أقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر لقمع فتنة ابن السرى، فسارعت وصنعت شعرا أمدحه به وأصور انتصاره على ابن السرى ، واصطنعت فى هذا الشعر ما كان يصطنعه شاعرا مصر الكبيران معلى الطائى وصاحبه ابن عفير من السخرية فى تصوير الهزيمة ، وكان شعر هذين الشاعرين على أفواه الناس بمصر ، وأظن أنه لم يبق فى أيديكم منه إلا القليل النادر ... أنظر مثلا كيف قلت فى انتصار عبد الله بن طاهر على ابن السرى :

لعمرى لقد كانت بمصر وقيعة ... أقامت على قصد الهدى كل مائل
على الخندق الأقصى وما كان حوله ... وما قد يليه من فضاء وساحل
رأى ابن السرى النصر أول يومه ... وأودى بليث من أبى السرو باسل
لوين جموع ابن السرى وخيله ... شماطيط تترى كالنعام الجوافل
فلما رأى ألا محيص وأنه ... كفاح الردى فى كل حق وباطل
توخوا أمان الأريحى ابن طاهر ... فمن فارس يأتيه طوعا وراجل

وانظر كيف وصفت خروج ابن السرى الأعرج إلى بغداد أسيرا بعد أن ظفر به ابن طاهر وكان ذلك عام ٢١١ هـ :

فأورده بغداد يهوى برجله ... ذمول ترامى فى قلاص ذوامل
فأصبح قد زالت ظلال نعيمه ... وأى نعيم ليس يوما بزائل ؟!

لكن ابن طاهر لم يلق إلى بالا ، ولم يظهر بشعرى حفاوة ، على حبه للأدب وعلى أنه كان شاعرا يقدر الشعر ، ولكن يظهر أن ابن عفير ألهاه عنا حتى لقد قال بعد خروجه من مصر « رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء : النيل والهرمين وابن عفير » وكنت حريا ألا أستيأس سريعا من ابن طاهر لو أنه بقى بمصر وقتا طويلا لكنه ما لبث أن خرج إلى العراق سنة ٢١٢ هـ بعد أن استخلف على إمرة مصر عيسى ابن يزيد الجلودى ، وكان على خراج مصر إذ ذاك صالح بن شيرزاد الذى ظلم الناس وزاد فى الخراج ، فانتقض عليه أهل الحوف من جديد يتزعمهم عبد السلام بن أبى الماضى وكان على القيسية ، وابن الجليسى وكان على اليمنية . وتغلب أهل الحوف على عيسى الجلودى وصالح ابن شيرزاد ، وأكثروا فى أصحابهما التقتيل ، فلما بلغ ذلك الأمير أبى اسحق (الخليفة المعتصم بعد) عزل عيسى عن إمرة مصر وولى مكانه عمير ابن الوليد التميمى وكان ذلك فى رجب سنة ٢١٤ هـ .

حاولت فى هذه الأثناء أن أتغنى أشعار الحوفية وأصف وقائعهم، وأسخر وأتندر بالجلودى ، وأصور فراره ، فقلت فى ذلك شعرا تندرت فيه حين ادعيت أن الجلودى هذا نزل ضيفا على الحوفية فأكرموه وقروه ولكنهم قروه شيئا غير الطعام والشراب :

فنزلت بين ظهورهم أشرا ... فقروك ثم الطعن والضربا
ضيفاً ولكن لا أقول له ... أهلا بمثواه ولا رحبا
فى حيث تلقى الرمح يشرع فى ... نطف الكلى والمرهف العضبا
من حى عدنان وإخوتهم ... قحطان لا ميلا ولا نكبا
ورأيت مركب ما أردت بهم ... صعبا ومغمز عودهم صلبا

ولكن مالبث أن جاء الأمير أبو اسحاق إلى مصر، وانتصر على الحوفيين بعد أن بدأت أشيد بانتصاراتهم ، حاربهم فى بلبيس ووضع السيف فى رقابهم حتى كاد يفنيهم ، ثم دخل الفسطاط وجمع أعيان المصريين

وأخذ العهد عليهم ، ثم خرج إلى الشام فى غره المحرم سنة ٢١٥ هـ ومعه جمع كثير من الأسرى وهم فى ضر وجهد حفاة أمام الخيالة ، وقبل خروجه ولى عبدويه بن جبله .

وأنظر فأرى زعيمى الحوفية مصلوبين بالجيزه صلبهما المعتصم ، وأجد المعلى الطائى يصور هزيمة الحوفيين تصويرا بديعا رائعا ، فانظره كيف تندر وصور الجليسى وهو مصلوب فانك لا شك ستذكر بشعر المعلى هذا بعض شعرى فتعرف تأثرى بهذا الشاعر المصرى ، فمعلى يرى الخشبة التى صلب عليها الجليسى أو عبد السلام بن أبى الماضى جوادا لكنه جواد لا يتحرك ولا يسير ، ولا يأكل ولا يشرب ، لأنه جواد صنعه النجار ... قال :

إن الجليسى غدا سابقا ... فى حلبة الجسرين قد قصبا
على طمر ماله أول ... من صنعة النجار قد شذبا
وليس يدرى عند إلجامه ... من أثغر الطرف ومن لببا
لو كان من بعض نخيل القرى ... كان أبو القاسم قد أرطبا
كسا أبو إسحق أوداجه ... أبيض لا يعتب من أغضبا
وقد سقى عبد السلام الردى ... فكيف بالله إذا جربا ؟

ولقد أعجبنى حقاً قوله : « لو كان من بعض نخيل القرى » وأنت تذكر أنى قلدت هذا الشعر حين وصفت صلب بابك الخرمى ومازيار فادعيت أن هذه الخشبة التى صلب عليها كل منهما جواد لا زال عليه فارسه :

بكروا وأسروا فى متون ضوامر ... قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ... أبداً على سفر من الأسفار

وتتابعت هذه الحوادث الدامية وما انفك هذا الأمل مستبداً بى بعد أن خاب ظنى فى المطلب الخزاعى وعياش بن لهيعة الحضرمى وعبد الله

ابن طاهر ، وعمير بن الوليد ، وبعد أن خاب ظنى كذلك فى الحوفية وفى الأمير أبى اسحق حين جاء إلى مصر وأردت أن أكون شاعره ... ووجدت نفسى لا زلت غفلا بعد هذا الدؤوب المتصل وبعد هذه الغربة الطويلة ، وبدأت أفكر فى العودة إلى أهلى ، ويئست من مصر وأهلها ، فلم يكن سخطى فى الحقيقة من عياش وحده بل من غيره أيضاً .

وأخيرا ودعت مصر بهذه اللامية : « أصب بحميا كاسها مقتل العذل » وصفت فيها تعذر الرزق على مصر ، وصورت فيها ضيق نفسى ، وكأن هذه القصيدة فى الحقيقة اعتذار أقدمه قبل عودتى إلى أهلى خائباً تائباً ! اقرأ هذه القصيدة مرة أخرى فستجد أنى حاولت أن أرضى نفسى بما قلته فى مصر ، بل حاولت أن أرضى شاعريتى لكى أظهر المتأدبين من المصريين أنهم حين ضيعونى إنما ضيعوا شاعراً كان جديراً منهم بالعناية والاكرام ... أنظر كيف وصفت الخمر فى هذه القصيدة :

أصب بحميا كاسها مقتل العذل ... تكن عوضاً إن عنفوك من التبل
وكأس كعسول الأمانى شربتها ... ولكنها أجلت وقد شربت عقلى
إذا عوتبت بالماء كان اعتذارها ... لهيباً كوقع النار فى الحجر الجزل

فهل رأيت إلى الخمر كيف شربتها وكيف شربتنى ! وهل رأيت إلى عتابها بالماء فاعتذرت بهذا اللهب المتوهج منها !

إذا هى دبت فى الفتى خال جسمه
لما دب فيه قرية من قرى النمل
إذا ذاقها وهى الحياة رأيته
يعبس تعبيس المقدم للقتل

وقد أكون فى هذا دون الأعشى ودون الأخطل وربما دون الحسن أيضاً ، لكنى بعد ذلك قلت :

إذا اليـد نالتهـا بوتر توقرت
على ضعفها ثم استقادت من الرجل
ويصرع ساقيهـا بانصـاف شربهـا
وصرعهم بالجـور فى صورة العـدل

فدبيب الخمر فى الجسم وتشبيهه بدبيب النمل ، وهذا التعبيس الذى يبدو على وجه شاربها حين يذوقها ربما كنت تابعاً فيه ، وكذلك ثأر الخمر حين تمزجها بالماء فتضعفها وتنال منها فتتوقر وتستضعف وتنتظر فرصة مواتية ، حتى إذا ثمل الشرب وجاءوا لينهضوا استقادت منهم فثأرت لنفسها ، لأنها تثقل سيقانهم وتضعفها عن المشى فيتعثرون ويتخبطون... كل هذا قد أكون تابعاً فيه كذلك ، لكن لديك بعد هذا فى صفة الخمر عدل وجور ومن العدل يخرج نوع من الجور ، ومن الجور يخرج نوع من العدل ، وهذا من خصائص فنى فيما أظن .

وأخيراً تركت مصر إلى ميدان آخر فيه وقائع ربما كانت أعظم خطراً وأجل أمراً ، فهناك على الثغور حرب بين المسلمين والروم ، فالى حميد الطوسى وصاحبه أبى سعيد الثغرى ، وإلى بابك ومازيار وأبى دلف العجلى ، بل إلى غيرهم من قواد المسلمين ، وإلى الخليفة المعتصم نفسه فقد أكون شاعره...

هذه قصتى فى مصر وهى حلقة من حلقات صراع ملأ حياتى ، ولى مع أبى المغيث موسى الرافقى الذى كان يلى الشام فى هذه الأثناء قصة كقصتى مع عياش تماماً ، تستطيع أن نرجع إلى شعرى لتعرفهـا ، أما ما سأحدثك به الليلة المقبلة فقصتى مع ابن طاهر حين رحلت إليه وهو أمير خراسان فالى ليلة أخرى إن شاء الله .

٥

مع ابن طاهر فى خراسان

قال أبو تمام :

وإنما أردت أن أذكر لك قصتى مع ابن طاهر لتعرف كيف كان وقع شعرى فى نفوس الأدباء وماذا كانوا ينكرون على منه ، ولأنه فوق هذا كان امتحاناً كهذا الامتحان الذى تعد له ، وكان فيه كذلك محلفون ، لكنهما كانا اثنين فقط من الشيوخ الجلة أيضا ؛ أما أحدهما فكان أبا سعيد الضرير ، وأما الآخر فكان أبا العثميل شاعر ابن طاهر ، وكان الأمير جعلهما على خزنة كتبه وأمر ألا يدخل عليه شاعر إلا بعد إجازة من هذين الرجلين .

ولا يتسع وقتنا لأحدثك عن هذه الرحلة الطويلة الشاقة من الشام إلى خراسان ، وحين وصلت خراسان وعلمت ماعلمت من وجوب تقديم مدحتى لأبى سعيد ولأبى العميثل وانتظار رأيهما واجازتهما حزنت،وحدثتنى نفسى : ترى ماذا يكون مصيرى وسمعتى لو رفض هذان العالمان بائيتى ؟ وما عهدت شاعراً مثلى يمتحن مثل هذا الامتحان ! لكنى جئت من الشام فهل أقفل راجعاً دون أن ألقى الأمير ؟ فلأقبل هذا الامتحان على مضض ، كما ستقبله أنت على مضض ! وجال فى نفسى أن أبا سعيد قد يكون متعصبا على مثل ابن الاعرابى .. وكانت فترة عصيبة حين ظللت أنتظر رأيهما . ولم يفتنى أن أصادق أبا العميثل ،

فأما أبو سعيد فلم ينلنى من نفسه شيئا ! ومضى وقت ولم أستدع ، فزاد ذلك من خوفى . أخيراً كتبت لأبى العميثل أستنجزه الحكم وأبين له عن قلقى ، وقلت إنه لولا ثقتى بحكم الأمير وعدله لشكلت آمالى بأسرها :

ليت الظباء أبا العميثل خبرت ... خبراً يروى صاديات الهام
إن الأمير إذا الحوادث أظلمت ... نور الزمان وحلية الأيام
والله ما يدرى بأية حالة ... ينعى مجاوره على الأيام
أبما يجامعه لديه من الغنى ... أم ما يفارقه من الاعدام ؟

وذكرت الصحيفة التى فيها المدحة وإبطاءهم فى الحكم عليها فقلت :

وأرى الصحيفة قد علتها غبرة ... فترت لها الأراح فى الأجسام

وبقيت أنتظر ، وبقيت الصحيفة ينظر فيها من ينظر ، حتى جاءنى من استدعانى إلى خزانة الكتب فأسرعت ، فاذا أبو العميثل وأبو سعيد ، وإذا أبو العميثل يقول : انما فضلنا أن تجلس بيننا وقتاً قبل أن نجيز القصيدة فنقرؤها معاً بيتاً بيتاً ، فقد يوجه اليك أبو سعيد بعض النقد فان أقنعته دخلت على الأمير —حفظه الله— وأنشدته وعدت من عنده سعيداً مرفوراً . وجلست بينهما كما يجلس الطالب فى لجنة من لجانكم ، فابتدرنى أبو سعيد بقوله :

— يا أبا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟

. وكان بدءاً صعباً على نفسى فلم أتمالك أن قلت له على الفور وعلى طريقتى فى الأداء :

— وأنت يا أبا سعيد لم لا تفهم من الشعر ما يقال ...

وكأنى ألقمته بهذا الجواب حجراً ، ورأيت أبا العميثل يضحك من تحت ذقنه ضحكة خبيثة ، وأحسست بشىء من الغبطة لهذا الجواب الحاضر ، وان كنت أحسست كذلك بشىء من الخوف لأن مثل هذا

الحرج لرجل كأبي سعيد لم يكن ينبغي ... حذار يا صديقي من مثل هذه الأجوبة اللاذعة إذا عقد لك امتحانك ! ولكني أسرعت فطردت الخوف عن نفسي وقلت لها : ليكن ما يكون فيجب أن يعرف هذا الشيخ ما أقول لا أن أقول أنا ما يعرف ... ومضت لحظة رأيت فيها أبا سعيد يبلع ريقه ، ثم ما لبثت أن سمعته كأنه يخاطب نفسه :

— مطلع والله غريب منكر :

هن عوادي يوسف وصواحبه فخزماً فعزماً أدرك النأي طالبه

فقلت على الفور :

— لم أقل « النأي » ولكني قلت « أدرك السؤل طالبه »

فقال أبو سعيد :

— بدأت بالكناية عن النساء ولم يجر لهن ذكر بعد ... هذه واحدة .

ثم قلت « عوادي » أي صوارف كما يقال عداني عنك كذا أي صرفني ، أردت هن صوارف يوسف ، وصوارف ها هنا ليست قائمة بنفسها لأنه يحتاج أن يعلم صوارفه عماذا . ربما أردت صوارفه عن تقاه أو هداه أو عن عزمه مثلا حتى هم بالمعصية . واللفظة القائمة بنفسها أن لو قلت مثلا « فواتن يوسف » أو قلت « شواغف يوسف » أو نحو ذلك ، وإنما يتم معنى الكلمة بمثل هذه الألفاظ . وهذه واحدة أخرى . ثم إنك ألحقت التنوين بيوسف وهذه ثالثة . فأنت جئت بثلاثة أخطاء متتابعة . وتممت البيت بعجز لا يليق بصدره وهو أردأ معنى من الصدر وذلك قولك « فعزماً فقدماً أدرك النأي طالبه »

قلت :

— ولكني ذكرت لك أن الرواية « السؤل » لا النأي .

قال :

الموجود في الصحيفة «النأي» لا «السؤل» ، واذن فيصير حمل معنى البيت : هن صوارف يوسف فاعزم فقديما أدرك البعيد طالبه . وهذا

كلام لايشابه بعضه بعضا ولا يلائمه ، وانما كانت ألفاظه ومعانيه تتشابه أن لو قلت :

هن عوادى يوسف وصواحبه فلا يعدونك مطلب أنت طالبه

أو « فلا يعدونك العزم فيما تطالبه » أى هن صوارف يوسف عن عزمه فلا تنصرفن أنت عن عزمك ومطلبك لعذلهن ... وكنت كلما هممت بالرد عليه نظر إلى أبو العميثل نظرة أفهم منها أمره لى بالسكوت والتريث فأسكت وأتريث . وسكت أبو سعيد فقال أبو العميثل ...

— أرى أنك أسرفت يا أبا سعيد ! فما أظنك تجهل أن الاضمار قبل الذكر ليس عيبا إذا كان المعنى مفهوما ، وأبو تمام أخذ معناه من الحديث المروى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال فى مرضه الذى انتقل فيه وهو يعنى النساء « انكن صويحبات يوسف » ولولا أنك أذنت لبعض الأدباء الموجودين بحضرة الأمير — أعزه الله — باستنساخ القصيدة لما وقع خطأ فى النسخ ، فقد رأيتها عند بعضهم « هن عوادى يوسف » ورأيتها عند البعض الآخر « أهن عوادى يوسف » على الاستفهام ، وربما كانت هذه الرواية أحسن فى السمع وأنفى للعيب .

قلت :

— كلا ، وإنما قلت « هن » وهى روايتى على مافيها من عيب إن كان ذلك عيبا ، وهو أحب إلى من الوجه الآخر مع انتفاء العيب فيه ...

فقال أبو العميثل :

— وأما لحاق التنوين بيوسف فليس بعيب أيضاً لأن الأصل فى الأسماء كلها الصرف ، ورد الاسم فى الشعر إلى أصله ليس عيباً فاحشا وهو من أحسن الضرورات ... وأما « عوائد » فتستطيع أن تجعله من عاده يعوده إذا طرقه وزاره ، وعلى ذلك فسروا قول زهير « فعادك أن تلاقيها العداء » أى صرفك ، فعلى هذا يكون « عوادى » غير مقلوب من « عوائد » ويكون كل منهما على حياله .

وهممت بالتكلم لكن أبا سعيد مالبث أن قال :

— أى تكلف ظاهر ! إنك يا أبا العميثل تحاول أن تأخذ بيد صاحبك حتى وان كان فى ذلك تغيير لروايته ومعناه . أى معنى للزيارة هنا إذا جعلت « عوادى » من عاده يعوده إذا زاره ؟ فأما ما ذكرته من قول زهير « وعادك أن تلاقيها العداء » فقد يجوز أنه أراد عادك بمعنى اعتادك وراجعك ، أى عادك ماصرفك عن تلاقيها ، وأوله على ما أذكر « فصرم حبلها إذ صرمته » . وكأن أبا العميثل انقطع لكنه عاد فقال :

— يمكن أن تكون « عوادى جمع عدو ، جمع على فواعل وهو شاذ جرى فى المثل على فاعلة فهو جمع عادية ، والعادية العدو ، وهذا من قولهم عدا فلان على فلان عدواً وعدواً ، وقد قرأ الحسن (ويسبوا الله عدواً) بضم العين والدال واكتفى بالواحد من الجمع ، فيكون على هذا « عوادى يوسف » الذين عدوا عليه أى ظلموه بما فعلوا فى حقه .

فقال أبو سعيد :

— يا لله ! أكل هذا لتنجى صاحبك مما تورط فيه !؟ إنه تخريج بعيد وتمحل ظاهر ...

وكنت فى كل هذا مأخوذاً لأن الأمر لن ينتهى إذا ظل هذان الرجلان يتجادلان على هذا النحو ، وفكرت فى موقف أبى سعيد وكيف أذن لبعض الأدباء أن يستنسخ القصيدة قبل أن أدخل بها على الأمير ، وضايقنى هذا التصحيف الذى وقع فيها عن قصد أو غير قصد ، وأطرقت مستيئساً حتى انتبهت على صوت أبى سعيد وهو يقرأ :

إذا المرء لم تستحلس الحزم نفسه فـذروته للحادثات وغاربه

قلت :

— لم أقل « تستحلس » ولكنى قلت تستخلص ...

قال أبو سعيد :

— الذى فى الصحيفة « تستحلس » وهى أشبه بمذهبك ، وهى استعارة بعيدة مصنوعة . أردت أن تقول إذا المرء لم يجعل الحزم مقدمة له كالحلس يلقى على ظهر البعير ثم يوضع الرحل عليه فمقدم سنامه للحادثات . أليس كذلك ؟

قلت :

— إنما قلت « تستخلص » فأما إذ جعلتها « تستلحس » وفسرتها على ما فسرتها به فأنت وما تريد .

قال أبو العميثل :

— هبها كما تقول فلم تنكرها أبا سعيد ؟ أما والله إنه لبديع أن يجعل أبو تمام للحزم حلساً يقتعده المرء فلا تتعرض ذروة هذا البعير الجديد إلى الحادثات ! ألا ترى أنه فى هذا بديع ؟

ثم نظر إلى أبو العميثل وقال كأنه يغيظ صاحبه :

— أحسنت يا أبا تمام ، والله ما يأتى بمثل هذا غيرك ...

ولم يقل أبو سعيد شيئاً ولكنه أنشد البيت التالى له :

أعاذلتى ما أحسن الليل مركباً وأحسن منه فى الملمات راكبه

قلت :

— هذا شىء عجيب حقاً ! فهذه القصيدة قد حرفت حتى ليخيل إلى أن كل بيت منها تناوله تصحيف أو تحريف ، فأنا لم أقل « ما أحسن الليل » ولكنى قلت « ما أخشن الليل » بالشين المعجمة .

فقال أبو العميثل :

— كلاهما حسن جيد .

فقال أبو سعيد :

— أأردت التهويل أم التهوين ؟

قلت :

— التهويل ، ولا شأن لى بمن روى « ما أحسن الليل » .

قال :

— ولكنه لم يسمع مركب خشن ، ولو عنيت التهويل لقلت : ما « أوعر الليل مركباً » أو قلت : « ما أصعب » أو نحو ذلك .

وكدت أتميز من الغيظ لأن تناول الشعر على هذا النحو يفسده ويجعله أشبه بجثة هامدة قد شوهها مبضع جراح فجعلها قطعاً متناثرة لا أثر للحياة فيها ولا يتصل بعضها بالبعض الآخر ... وقلت لنفسى : لخير لى أن ارسب فى هذا الامتحان وأقفل راجعاً من حيث أتيت على أن أرى بعينى تمزيق هذه الجثة ... وفيما أنا أهم بالانصراف مستأذناً وقد عقد الحزن لسانى إذ دخل علينا شاعر من شعراء الأمير يعرف بالرياحى ، وكنت قد لقيته وتعرفت إليه وكان قد استنشدنى واستنشدته ، فحيى وجلس ، ثم قال :

— ما لكم أبطأتم ! إن الأمير — أعزه الله — ينتظر دخول أبى تمام ونحن ننتظر معه ، ولم نكن نظن أنه سيتأخر إلى هذا الوقت .

فقال أبو العميثل :

— إن أبا سعيد يوقفنا عند كل بيت وقفة طويلة ، وماذا أنت قائل إذن إذا عرفت أننا لم ننجز منها إلا أبياتاً ثلاثة !

فصاح الرياحى :

— ويلى ! أبياتاً ثلاثة وهى فوق الأربعين ! فيم إذن كنتم ؟ فلن يدخل أبو تمام على الأمير — أعزه الله — إلا فى عام قابل ! لولا قرأتم القصيدة كما أقرؤها لأجزتموه للتو .

ثم أخذ ينشد بصوت عذب :

هن عوادى يوسف وصواحبه ... فعزماً فحزماً أدرك السؤل طالبه

إذا المرء لم تستخلص الحزم نفسه ... فذروته للحادثات وغاربه

أعاذلتى ما أخشن الليل مركباً ... وأخشن منه فى الملمات راكبه

ذرينى وأهوال الزمان أفانها ... فأهواله العظمى تليها رغائبه

ألم تعلمى أن الزماع على السرى أخو النجح عند الحادثات وصاحبه
دعينى على أخلاقى الصم للتى هى الوفر أو سرب ترن نوادبه
فان الحسام الهندوانى إنما خشونته مالم تفلل مضاربه

وحاول أبو سعيد أن يستوقفه ولكنه استمر ينشد :

وقلقل نای من خرسان جأشها فقلت اطمأنى أنضر الروض عازبه
وركب كأطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل رواد الملاط تهدمت عريكته العلياء وانضم حالبه
رعته الفيافى بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
فأضحى الفلا قد جد برى نحضه وكان زماناً قبل ذاك يلاعبه
فكم جزع واد جب ذروة غارب وبالأمس كانت أتمكته مذانبه

وخيل إلى أنه لم يقطع نفسه فى هذه الأبيات ، وكأنه كان فى نفسى وأنا أقول هذا الشعر لفرط تأثره به ، وإعجابه بمعانيه ، ثم رأيته يصيح :

— ألا تعجبون ، ألا تطربون ؟ أى نبع يتدفق ، وأى سحر حلال هذا الذى يقول أبو تمام ! ألا والله إن هذا لهو الذى أضلته الشعراء !

وأمن أبو العميثل على قوله ، وأحسست بنفسى ترتد إلى ، ورأيت هذه الجثة تعود فتلتئم أجزاؤها وتنبض فيها الحياة ... ورأيت أبا سعيد قد تداخل فى نفسه ، ثم سألنى الرياحى :

— أين منشدك يا أبا تمام ، هذا الغلام الذى رأيته معك ؟

قلت :

— الفتح ! هو هنا ينتظرنى فى خارج ...

قال :

— أدخله معك يا أبا تمام حين تدخل على الأمير ، فان شعرك

لا تعرف روعته إلا إذا ألقى إلقاءاً حسناً ، فانه عندئذ يقع من النفس أحسن موقع ... إن له لجرساً عذباً .

فقال أبو سعيد :

— ماذا تقصد بهذا الجرس العذب ؟

فقال أبو العميثل :

— نعم يا أبا سعيد ، فبدل أن تقف عند « هن » هذه ولا تراها إلا ضميراً تقدم قبل الذكر وتقوم وتقعد لهذا ، يريدك الرياحى أن تصغى لموسيقى الكلام وما يثيره فى النفس ، وتنظر لمعنى الشعر ومعانيه مجموعاً غير مفرق ، فأما أن يكون نظرك فيه قاصراً على صحة النحو أو صحة المعنى فهذا ما ينبغى ألا نسرف فيه كما أسرفنا وقد آن الأوان لهذا ...

فقال أبو سعيد :

— موسيقى الشعر ؟ وما موسيقى الشعر ؟

فقال الرياحى :

— أصغ إلى جرس هذه النون فى « هن » فلا شك أن له رنيناً يملأ السمع ، ولو استقام لأبى تمام الوزن وأتى بـ « يوسف » غير منون لأخفق وذهبت روعة هذا الجرس النونى العذب الذى جاء بعد الجرس النونى فى « هن » ، والدليل على أنه قصد إليه إتباعه هذين الجرسين النونيين ، أو هذين الرنينين العذبين ، بجرس مماثل فى الشطر الثانى من البيت حين قال (فخزماً فعزماً) فاستقام له موسيقى شملت البيت كله ، فأنت حين تنشد البيت إنشاداً حسناً سيظهر لك هذا ، وربما ظهر لك أكثر من هذا حين تتأمل ما يوحى به جرس هذه القوافى الطويل الممتد الذى ينتهى بباء تليها هاء ساكنة كأنها تنفس متعب مكدود ... هذه الهاء قد لا تكون عندك وعند الذين ينظرون فى الشعر نظرك أكثر من ضمير يعود على مايعود عليه ، أما عندنا فهذه الهاء ترجيعة موسيقية رائعة لا أدرى كيف أصفها لك ...

وأخذ الرياحي ينشد من جديد :

أعاذلتا ماأخشن الليل مركباً وأخشن منه فى الملمات راكبه
ذرينى وأهوال الزمان أفانها فأهواله العظمى تليها رغائبه

وظهر فى صوت الرياحى وهو يردد هذين البيتين اللوعة والأسى حقاً ، أو هذا ما خيل لى على الأقل ، وظهر فى صوته كذلك هذه المعاناة التى يثيرها هذا النداء الطويل ، حتى لكأن هذه الهاء الأخيرة تنفس الصعداء بعد سير طويل متعب ... ولا أدرى أتأثر أبو سعيد بهذا أم لم يتأثر ، ولكنه استجاب إلى رغبة الرياحى وأبى سعيد لتجاز القصيدة وندخل على الأمير ...

ودخلت على الأمير وحوله جماعة من الشعراء والأدباء ، وأخذت فى الانشاد ، فلما وصلت إلى قولى أصف الرحلة إليه :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل رواد الملاط تهدمت عريكته العلياء وانضم حالبه
رعته الفيافى بعد ما كان حقبة رعاها وماء المزن ينهل ساكبه

صاح الشعراء بالأمير :

— ما يستحق مثل هذا الشعر إلا الأمير أعزه الله !

وقال الرياحى :

— لى عند الأمير أعزه الله جائزة وعدنى بها وهى له جزاء عن قوله.

فقال الأمير :

— بل نضعفها لك ونقوم بالواجب له .

ولما فرغت من إنشادها نثر على الأمير ألف دينار ، ولكنى لم أمسسها فلقطها الغلمان ، فلما رأى ذلك وجد على ونهض وهو يقول : يترفع

عن برى و يتهاون بما أكرمته به ؟ ولا أدرى لماذا فعلت ما فعلت ، ولعلى أردت أن أقول لأبى سعيد هأنذا يا أبا سعيد فى هالة من الأدباء والشعراء يصيحون لفرط إعجابهم بشعرى ، وها هو الأمير ينثر على ألف دينار ولكنى لا أمسها !

وعدت إلى الخان الذى كنت نازلا فيه وأنا مغتبط لما نالنى من تقدير وإعجاب ، حزين لما فعلته مع الأمير ، وعرفت أنى لن أجد بعد ذلك عنده نفعا . وصرت أبعث إليه بالمدحة تلو المدحة ، وأستشفع بمن حوله ، لكنه صار لا يبعث لى إلا بالشىء التافه القليل كأنه أراد أن يلقنى درساً !

وأقبل الشتاء فبعثت إليه بقصيدتى اللامية :

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل ولا قشيب فيستكسى ولا ثمل

بكيت فيها المصيف ، وكنت فى الحقيقة أبكى شيئاً آخر ، وذممت فيها الشتاء وكنت كأنما أذم برداً غير برده ، بل إنى صرحت فى آخرها بقولى :

ما للشتاء وما للصيف من مثل يرضى به السمع إلا الجود والبخل

ولكن الأمير ابن طاهر مضى فى إعراضه ، فلم يأذن لى بما أردت منه ، ولم يأذن لى بالارتحال ، ووجدت أن نفسى كاد يأتى عليها هم ثقيل فتسليت لأروح عنها ، وعمدت إلى العبث والمجون جهراً بعد أن كنت أفعل ذلك فى السر إبقاء على رضى الأمير ، وفى مدينة نيسابور أو أبرشهر كما كانت تسمى بالفارسية عرفت مغنية مفرطة الحسن رخيمة الصوت ، فتعشقتها وقضيت معظم ليالى عندها ، وكان عبد الله بن طاهر كلما سأل عنى وعلم إنى عندها يزداد تغيره على ، وينقص مقدارى عنده . أقرأت قولى لها :

أيا سهرى بليلة أبرشهر زمت إلى يوماً فى سواها
سمعت بها غناء كان أحرى بأن يقتاد نفسى من عناها

ومسمعة تقوت السمع حسناً ... ولم تصممه لا يصمم صداها
مرت أوتارها فشجت وشاقت ... فلو يستطيع سامعها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ... ورت كبدى فلم أجهل شجاها

ثم أعود إلى الشكوى فأبعثها اليه لعله يأذن لى بالسفر فلا يجيبنى ... أقرأت هذه الميمية التى أقول فيها :

صريع هوى تغاديه الهموم ... بنيسابور ليس له حميم
غريب ليس يؤنسه قريب ... ولا يؤى لغربته رحيم

أقول :

رجاء ما يقابله رجاء ... هو اليأس الذى عقباه شوم
وقد فارقت إذ فارقت داراً ... بأرض الشام حف بها النعيم
هى الوطن الذى فارقت فيه ... وفارقنى المساعد والنديم
ألومك لا ألوم سواك دهراً ... قضى بى بالذى يقضى سدوم
وفى الدنيا غنى لم أنب عنه ... ولكن ليس فى الدنيا كريم !

ويشتد غيظى كلما أمعن الأمير فى النأى والاعراض فتزداد حدة لسانى فأقول له من أخرى :

صبراً على المطل مالم يتله الكذب ... وللخطوب إذا سامحتها عقب
على المقادير لوم إن رميت بها ... من قادر وعلى السعى والطلب
يا أيها الملك النائى بغرته ... وجوده لمراعى جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وكنت أحياناً أصطنع هذه السخرية الحزينة التى رأيتها فى شعرى

لعياش ، ففى ذات يوم اجتمعنا بباب الأمير من بين شاعر وزائر فحجبنا جميعاً ، فكتبت إليه أداعبه :

أيهذا العزيز قد مسنا الضـــر جميعاً وأهلنا أشتات
ولنا فى الرحال شيخ كبير ولدينا بضاعة مزجاة
قل طلابها فأضحت خساراً فتجاراتنا بها ترهات
فاحتسب أجرنا وأوف لنا الكيـ ـل وصدق فاننا أموات

ولكن الأمير مع ذلك لم يأذن لنا ، وسمعت أنه حين قرأها قال لمن حوله : قولوا لأبى تمام لاتعاود مثل هذا الشعر فان القرآن أجل من أن يستعار شىء من ألفاظه للشعر .

وأخيراً دخل عليه أبو العميثل وقال له : أيها الأمير أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له من النباهة فى قدره ، والاحسان فى شعره ، والشائع من ذكره ، ماله لكان الخوف من شره والتوقى لذمه ما يوجب على مثلك رعايته ، فكيف بنزوعه إليك من الوطن وفراقه للسكن ، عاقداً بك أمله ، معملا إليك ركابه ، متعبا فيك فكره وجسمه ، وفى ذلك ما يلزمك من قضاء حقه حتى ينصرف راضيا . ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه إلا قوله :

يقول فى قومس صحبى وقد أخذت منا السرى وخطى المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ؟ فقلت كلا ولكن مطلع الجود

لكان خليقاً ببرك ورعايتك .

فقال عبد الله :

— لقد نبهت فأحسنت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى .

ثم أمر فدعانى ونادمنى طول يومه ، وأمر لى بألفى دينار وخلع كثيرة ، وأعطانى خاتماً فى يده كان له قدر .

وسافرت من عنده ، ولكن البرد حازنى وأنا بأذربيجان ، فعرجت على صديق هناك هو أبو الوفاء بن أبى سلمة وكانت لديه خزانة كتب تحوى كثيراً من دووابن الشعر ، فأمضيت الشتاء فيها وجمعت كتاب الحماسة الذى تعرفه .

هذه يا صديقى قصتى مع ابن طاهر ، أو هذه حلقة من حلقات الصراع الذى كان بيننا وبين هؤلاء الممدوحين .

فأنت ترى أنه لم يكن شراً كله ، لأنه كان فى كثير من الأحيان يحفز النفس ويثير الحس ، ويشعر بالحياة . فهل لا يزال المديح عندك فى صورته القديمة التى تدل على ابتذال النفس ؟

ولولا أنى أعرف أن مثل أحاديثى هذه قد تفسد عليك أمرك ، وتخل بنظام رسالتك ، لزرتك زورات أخرى ألقى اليك فيها بشجون نفسى وأحدثك فى غير منهج أو قيود ، ولكنى مشفق عليك ، فعد يا صديقى إلى كتابك لتنتهى منه ، واجعل هذا الحديث على هامشه ، وأستودعك الله وأرجو لك النجاح والتوفيق .

قائمة الكتب التى أصدرتها دار الكاتب المصرى

باشراف الدكتور طه حسين بك

الأدب والقصص الحديث

قلوب الناس، قصص تحليلية، تأليف ابراهيم المصرى.
قصص جديدة للكاتب المعروف ابراهيم المصرى يصور فيها بيئتنا المصرية الحديثة فى أسلوبه السهل الجذاب. الثمن ١٥ قرشا.

قطوف، بقلم عبد العزيز البشرى، مقدمة لطه حسين.
آخر آثار الأديب العظيم عبد العزيز البشرى جمعت فى مجلدين يحتويان أكثر من ٤٠٠ صفحة. اقرأ « قطوفه » هذه فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق للحياة المصرية فى عصر الانتقال.
طبعة فى جزأين، ثمن الجزء ٢٠ قرشا.

لقيطة، تأليف محمد عبد الحليم عبد الله.
القصة التى نالت جائزة فاروق الأول من مجمع فؤاد الأول للغة العربية لما فيها من وصف دقيق لنفس معذبة فى أسلوب عربى متين رصين.
الثمن ٢٥ قرشا.

من حولنا، قصص مصرية، تأليف محمد سعيد العريان.
جيل من الناس فى أفراحه وآلامه، يرى كل قارىء فى مرآته صورة من نفسه، أو صورة من حوله، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه.
الثمن ٢٥ قرشا.

على باب زويلة، قصة تاريخية، تأليف محمد سعيد العريان.
كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين، القصة التى نالت الجائزة الأولى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية عن أحسن إنتاج قصصى لسنة ١٩٤٧.
طبعة مزينة بالصور، الثمن ٣٠ قرشا.

حكايات فارسية، بقلم يحيى الخشاب.
كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً

رقيقا حسن الوقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة. الثمن ٢٠ قرشا.

من الأدب الفرنسى

جنة على نهر العاصى، تأليف موريس بارس، تعريب محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين.
غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر العاصى حيث تملأ السواقى بأنينها أجواز الفضاء. الثمن ١٨ قرشا.

غانية أطلنطا، تأليف بيير بنوا، تعريب رشدى كامل.
لم تكن تبحث عن نشوة الحب فحسب بل كانت ترمى كذلك إلى أن تنتقم من الرجال، فتقتلهم بحبها. الثمن ٢٥ قرشا.

كليمنصو وحياته العاصفة، تأليف ليون دوديه، تعريب حسن محمود.
كليمنصو ... مسقط الوزارات ... النمر ... الرجل الذى عاش حراً فأصبح مغلولا ... الرجل الذى طلب أن يدفن واقفا فى القبر ... زعيم فى السياسة بقلم زعيم فى الأدب. طبعة مزينة بالصور، الثمن ٣٥ قرشا.

الباب الضيق، تأليف أندريه جيد، تعريب نزيه الحكيم، مع رسالة من أندريه جيد إلى المترجم ورد طه حسين على أندريه جيد. الثمن ١٨ قرشا.

أوديب — ثيسيوس، تأليف أندريه جيد، ترجمة طه حسين.
« علمتهما العربية ليبلغا إلى قراء الشرق رسالتك التى هى ثقة وشجاعة واستبشار.» الثمن ٢٥ قرشا.

مدرسة الزوجات — روبير — چنفييف، تأليف أندريه جيد، تعريب صبرى فهمى.
فتاة فى نشوة الحب، ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها، دفاع الزوج عن نفسه، رأى الابنة فى والديها. الثمن ٢٥ قرشا.

والدة، تأليف فرنسوا مورياك، تعريب محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين.
وصف دقيق لنفسية الأم حين تشعر أن امرأة غيرها قد استأثرت بابنها وصرفته عنها. الثمن ٢٠ قرشا.

عقدة الأفاعى، تأليف فرنسوا مورياك، تعريب نزيه الحكيم.
«لا لم يكن المال ما يحبه هذا البخيل ولا الثأر ما يطلبه هذا المجنون. أما هواه الحق فستعرفه إذا ملكت القوة والجرأة على أن تصغى إلى هذا الرجل حتى اعترافه الأخير الذى يقطعه الموت.» الثمن ٢٠ قرشا.

وازن الأرواح، تأليف أندريه موروا، تعريب عبدالحليم محمود.
هل توجد الروح؟ وكم تزن؟ هل يمكن الاحتفاظ بها؟ وهل يمكن أن تمتزج بعد الموت روحان كانتا مؤتلفتين أثناء الحياة؟
الثمن ٢٠ قرشا.

كولومبا، تأليف بروسبير ميريميه، تعريب محمد غلاب.
قصة فتاة من أهل جزيرة كورسيكا تلك الجزيرة التى لازالت تعترف بالعواطف الفطرية الأولى وتدين بقانون الحب والانتقام.
الثمن ٢٠ قرشا.

أرض البشر، للكاتب الطيار أنطوان دى سانت أكسوبرى، تعريب مصطفى كامل فوده.
«أرض البشر، تلك الهباءة من الثرى التائهة بين الاجرام السماوية تلك الأرض الجديرة بالعجائب لأنها وحدها تكون الرجال.»
طبعة مزينة بالصور، الثمن ٢٥ قرشا.

دير پارم، تأليف ستندال، تعريب عبد الحميد الدواخلى.
قصة من عيون الأدب الفرنسى يصف كاتبها الكبير دولة إيطالية صغيرة ومغامرات بطل القصة ودسائس وزيرها العجيب.
طبعة فى جزأين، ثمن الجزء ٣ قرشا.

زديج أو القضاء، قصة شرقية، تأليف فولتير، ترجمة طه حسين.
مشكلة القضاء والقدر يعرضها الفيلسوف الفرنسى فولتير فى أطار قصصى جذاب.
عدد خاص من مجلة الكاتب المصرى، الثمن ١٠ قروش.

من الأدب الانجليزى

العالم الطريف، تأليف أولدس هكسلى، تعريب محمود محمود.
العالم فى المستقبل ... بعد أن يتحكم العلم ... وتتولد الأطفال فى المعامل! الثمن ٢٥ قرشا.

طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض، تأليف هـ. ج. ولز، تعريب محمد بدران.
قصة طريفة لذلك الكاتب الانجليزى الخصب الخيال الذى عرف بنبوآته الغريبة عن الحروب ومخترعات العقل البشرية وتحققت أكثر هذه النبوآت فى حياته. الثمن ٣. قرشا.

صورة دوريان جراى، تأليف أوسكار وايلد، تعريب لويس عوض.
قصة شاب جميل الطلعة يحتفظ بشبابه بينما تهرم صورة له وتظهر عليها كل العلائم التى تنتاب المقبلين على اللهو والملذات.
طبعة مزينة بالصور، الثمن ٣ قرشا.

شبح كانترفيل، تأليف أوسكار وايلد، تعريب لويس عوض.
وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هذا القصر التاريخى إلى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سان جيمس. فيها فكاهة متصلة مع براعة فى الوصف وفى الخيال.
طبعة مزينة بالصور، الثمن ١٨ قرشا.

من الأدب الأمريكى

هيروشيما، تأليف جون هرسى، تعريب حسن محمود.
قصة تدمير مدينة هيروشيما بفعل قنبلة ذرية واحدة وما حدث لسكان هذه المدينة، مشاهدات ستة أشخاص كانوا فى المدينة حين قذفت القنبلة ونجوا بأعجوبة من هذه الكارثة.
عدد خاص من مجلة الكاتب المصرى، طبعة مزينة بالصور.
الثمن ١٠ قروش.

من الأدب الروسى

المقامر، تأليف فيدور دستويفسكى، تعريب شكرى محمد عياد.

قصة شاب مصاب بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما وهى قصة عنيفة تستأثر بقلب القارىء وعقله. الثمن ١٨ قرشا.

قصة رجل مجهول، تأليف أنطون تشيكوف، تعريب محمود الشنيطى.

من أبدع قصص أمير القصة القصيرة وهى مثال كامل لفنه فى بناء القصة وفى معالجتها.

الثمن ١٠ قروش.

الحب الأول، تأليف إيفان ترجنيف، تعريب محمود عبد المنعم مراد.

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشئ يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه. الثمن ١٥ قرشا.

من الأدب الألمانى

نابليون، تأليف إميل لودفيج، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقى.

البطل الذى اكتشف لودفيج وراء قناع بطولته محيا الانسان، فتجلت بطولته فى إنسانيته، وفاقت كل ماعرف إلى الآن.

طبعة مزينة بالصور فى جزأين، ثمن الجزء ٤٥ قرشا.

فى الأدب القديم

كتاب البخلاء للجاحظ، حقق نصه وعلق عليه طه الحاجرى.

أثر من أعظم آثار الأدب العربى يبعث من جديد فى طبعة منقحة بالدقة التى يتبعها علماء هذا العصر. قام بنشره طه الحاجرى الذى تخصص فى أدب الجاحظ وعلق عليه وشرح غامضه فأصبحت هذه الطبعة أكبر أداة للباحثين.

٥٢+٤٦٨ صفحة من القطع الكبير، الثمن ١٠٠ قرش.

تأريخ قضاة الأندلس ، نشره إ. ليفى بروفنسال أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس .

وثيقة عظيمة الخطر عن تاريخ القضاء بالغرب الاسلامى فى العصر الوسيط .

٢٤٨+٢٤ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٧٥ قرشا .

فى القانون والفلسفة

مدونة چوستنيان فى الفقه الرومانى ، ألفه فقيه القياصرة فى قسطنطينية الامبراطور چوستنيان ونقله إلى العربية إمام القضاة فى مصر معالى عبد العزيز فهمى باشا ، أخرجته دار الكاتب المصرى فى طبعة ممتازة وتجليد أنيق .

٤٠٩+٢٨ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ١٥٠ قرشا .

العقيدة والشريعة فى الاسلام ، للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر ، نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر ، وعبد العزيز عبد الحق المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر ، وعلى حسن عبد القادر دكتور فى العلوم الاسلامية ومدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن .

١٦ + ٣٨٨ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٨٥ قرشا .

تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، تأليف الأستاذ يوسف كرم .

وهو كتاب قيم فيه تفصيل واف عن المذاهب الفلسفية فى تلك القرون فى دقة تعبير مع طلاوة فى الأسلوب .

٨ + ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير ، الثمن ٥٠ قرشا .

عقلى وعقلك ، تأليف سلامه موسى .

أوفى كتاب فى علم النفس الحديث يبسط آخر المعارف عن هذا العلم بلغة واضحة ليس فيه جملة معقدة أو فكرة مبهمة تقرأه فتقف منه

على أسرار النفس البشرية وحركة التفكير .
٨+١٩٢ صفحة من القطع الكبير، الثمن ٤٠ قرشا .

الضحك ، بحث فى دلالة المضحك، تأليف هنرى برجسون ، تعريب سامى الدروبى وعبدالله عبدالدايم .
الكتاب الشهير الذى وضعه الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون ليدرس فيه الضحك كظاهرة نفسية والمضحك وأنواعه المتعددة .
الثمن ١٥ قرشا .

فى التاريخ والتراجم

ساڤونارولا ، الراهب الثائر ، بقلم حسن عثمان .
صفحة من أروع صفحات عصر النهضة الأوربية كتبها مؤرخ توفر على دراسة ذلك العصر، وهى حياة شخصية غريبة قلما يجود بمثلها الزمان .
طبعة مزينة بالصور، الثمن ٢٥ قرشا.

تربية سلامه موسى ، بقلم سلامه موسى .
تاريخ حياة المؤلف باعتبار أن الحياة تربية وتاريخ مصر فى تطورها وانتقالها من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين . الثمن ٢٥ قرشا.

البيت السبكى ، بيت علم فى دولتى المماليك، تأليف محمد الصادق حسين.
تاريخ عصر يتمثل فى تاريخ أسرة بقلم عالم من أكبر العلماء .
الثمن ٢٥ قرشا .

دار الكاتب المصرى قسم النشر باشراف الدكتور طه حسين بك
٥ شارع قنطرة الدكة — القاهرة

DATE DUE

14 FEB 1975

SAFETY

2 SEP 1983

SAFETY LIB.
-4 AUG 2015
Circulation Dept. 4

892.78:A158YaA:c.1
عزام، محمد عبده
ليال خمس مع ابى تمام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01041073

892.78:A158YaA
عزام

892.78
A158YaA

892.71
A158Ya A